20 me année No 1006 — Le Caire 13 — 10 — 1952

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٢٧٤٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن هذا العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العدد ١٠٠٦ «القاهرة في يوم الاثنين ٢٣ محرم سنة ١٣٧٢ — ١٣ أكتوبر سنة ١٩٥٢» — السنة العشرون

ثورة فيها ريح النبوة

كل نبوة كانت ثورة . ومن أخص ما ميز ثورات النبوات أنها كانت للسلام العام والصلاح المطلق . فلا تجد نبيا دعا إلى عرض الدنيا ، ولا رسولا سعى إلى سلطان الحكم . إنما كان الأنبياء والمرسلون جند لله ، يعملون بوحيه ، ويهتدون بهديه . عقيدتهم الحق ، ودعوتهم الصدق ، وعدتهم الصبر ، ووجهتهم الخير ، وطريقهم التضحية . فلما ختم الله رسالاتهم برسالة محمد كتب على نفسه الرحمة أن يرسل إلى الناس في كل حقبة مصلحا يؤدبه بأدب الأنبياء ، ويجريه على منهاج الرسل ، ليجدد ما درس من نهجه ، ويبين ما طمس من طريقه . وشأنه سبحانه في إعداد المصلحين كشأنه تعالى في إعداد النبيين ، يصنعهم على عينه ، ويطبعهم على دينه ، حتى إذا ضعف سلطان العقل ، واختل ميزان العدل ، وعميت على الناس وجوه الرشد ، أظهر هذا المصلح من بين رجال السيف في أكثر الحالات ، لأنهم بحكم تنشئتهم أصحاب فداء ومضاء ، وألاف نظام وعمل ، وأحلاف شرف ومجد . يطلبون الحياة بالموت ، ويرحضون الرجس بالدم ، ويقرنون الرأي بالعزيمة . ولم تجتمع هذه الصفات لأحد قبل اللواء محمد نجيب وصحبه . وسر ذلك أنهم نشأوا في طبقة الفلاحين الكادحين فعرفوا كيف يكون الحرمان ، وعملوا تحت إمرة المستكبرين المستهترين فعلموا كيف يكون الطغيان ، وأضاءت قلوبهم النقية إشراقة من نور الله ، فرأوا من تحت الظلام الكثيف المخيف عرش مصر يرتطم في القذر ، وجيش مصر يضطرب في الفساد ، وشعب مصر يتمرغ في الذل ، فشبوا شبوب النار الهادئة تقتل المكروب ولا تحرق المريض ، وهبوا هبوب الريح اللينة تدفع الشراع ولا تغرق المركب . ثم عالجوا أمر هذه الأمة بعلاج الرسول الكريم ، فحطموا الأوثان كما حطم ، وكرموا الإنسان كما كرم ، وأزالوا الفروق بين الناس كما أزال ، وأدالوا الفقير من الغني كما أدال ، وقيدوا الحق بالواجب كما قيد ، وأيدوا الحجة بالسيف كما أيد . ثم أذاقوا الناس لأول مرة في تاريخ مصر نعمة الحرية والكرامة والمساواة ، ثم ظلوا كما كانوا قانعين متواضعين ، يظهرون في المجامع من غير أبهة ، ويمشون في الشوارع من غير حرس ، ويختلطون بالسواد من غير حرج . ثم لا يعدون أعينهم إلى نعيم ، ولا يبسطون أيديهم إلى ثراء . فهل يجوز بعد أولئك كله أن يعيدونا إلى ثورة الأحزاب وسمسرة النواب ومهزلة الزعامة ؟

لا يا سيد محمد نجيب ! إن الله جعل في يديك أمانة هذه الأمة فلا تلق بها إلى من خانوها من قبل ! إنك تريد (الاتحاد) وهم يريدون الفرقة . وإنك تريد (النظام) وهم يريدون الفوضى . وإنك تريد (العمل) وهم يريدون الكلام ! فهل يستوى الوفي والغادر ، أم هل يستوى البر والفاجر ؟

احمد حسن الزيات

الإسلام فى موكب الإصلاح

الطلاق وتعدد الزوجات

للأستاذ محمد عبد الله السمان

انقرض العهد البائد إلى غير رجعة . وقد كان عقبة كأداء فى سبيل أية حركة إصلاحية كان ينشدها أو يلوح بها المخلصون لهذا البلد ، وأصبح السبيل اليوم ممهدا لكل وثبة إصلاحية . بعد أن وهب الله لأمور هذا البلد ولاة تمتزج أحاسيسهم بأحاسيس الشعب . وعواطفهم بعواطفه ؛ وترحب عقولهم بنزعات الإصلاح وبرامج المصلحين ، وتستجيب قلوبهم لكل حركة إصلاحية من شأنها أن تنهض بالمجتمع وتسمده

والذى لا شك فيه أن الإسلام الصحيح الذى رضيه الله لعباده دينا يرحب بالإصلاح ويبارك موكبه ، لأنه دعوة إصلاحية شاملة تهدف إلى إقامة مجتمع نظيف مستقر على أسس متينة صالحة ، وتسمى جادة الى إسعاد البشرية قاطبة فى هذا الوجود ، ولسنا فى حاجة إلى دليل بعد أن أوضح كتاب الله الهدف من الرسالة المحمدية حين قال : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » — وإن كان ثمة فريق من المسلمين مريض بالتزمت فى غير فقه ، وبالجهل فى حمق وسفه ، يأبى إلا أن يجعل من الإسلام عقبة فى سبيل الإصلاح ، فليس من الإنصاف أن يعتبر هذا الفريق حجة على الإسلام — وجهله المطبق مدعاة لتجريح الإسلام ، والنيل منه ، والصد عن سلوك مناهجه والاستخفاف بها !

يدفعنى إلى هذا التمهيد مشكلة الطلاق وتعدد الزوجات التى تظهر اليوم من جديد على المسرح ، وقد نادى المصلحون من قبل بعلاجها ، وكان المسئولون السابقون يصمون آذانهم عن هذا النداء متذرعين بالجبن ، خشية أن يثير الإصلاح جيوش التزمت من رجال الدين وأدعياء الدفاع عن الإسلام — أما الآن فلا نظن أن حكومة الثورة تخشى فى سبيل الإصلاح ثورة تلك الجيوش الراكدة ، وقد أخذت المشكلة طريقها إلى الجد لعلاجها ، وهناك فى وزارة الشؤون الاجتماعية دراسات بشأنها ، ترجو أن تظهر فى القريب العاجل ثمراتها ، مما يحقق لمجتمعنا الإصلاح الذى ينشده كل وطنى يبغى الخير لوطنه

والمشغولون بهذه المشكلة طوائف ثلاث : طائفة مغالية تنادى بتقييد الطلاق تقييدا صريحا حاسما ، والقضاء على تشريع التعدد قضاء مبرما ، وهذه الطائفة مسرفة إسرافا يجعلنا لا نسلم مطلقا بمشروعها ، ولا نطمئن إلى تفكيرها ، إلا إذا رضينا المهانة لشريعتنا وحاشا أن نرضاها لها ، فما جاءت به هذه الشريعة الغراء من تشريعات لابد أن يكون فى جميعه مصلحة البشر ، وإلا كان البعض حشوا لا جدوى من وجوده .. وطائفة ثانية تشاطر الأولى الغلو والإسراف ، فهى تأبى إلا أن يظل الطلاق وتعدد الزوجات مباحين مطلقين ، حتى ولو أساء الجهلة استغلالها ، فأصبح ضررها أكثر من نفعها ، وأرسيا بناء المجتمع على قواعد مضطربة متراقصة ، ونحن أيضا لا نقر هذه الطائفة على تزمتها لأنها بتفكيرها تحكم على الإسلام بالجمود ، وتسيء إلى شريعته التى لم تكن إلا لصالح البشر .. أما الطائفة الثالثة فمعتدلة متزنة ، ناضرة الفكر ، تعمل على أن تحقق للاصلاح حسن ظنه بالإسلام ، وتثبت للعالم أن الإسلام يقر الإصلاح لأنه هدفه ، ويتطور معه لأنه دين حنيف ، يسر لا عسر ، ومرن سهل لا جمود فيه ولا تعقيد ، وهذه ترى إزاء فوضى أشياع الطلاق والتعدد — ألا يقدم جاهل على الطلاق إذا لم يكن هناك باعث عليه ، ولا على تعدد الزوجات إلا إذا كانت هناك حاجة ماسة إليه ، وبذلك يمكن وضع حد لاستخفاف المستخفين بشرعة الله عز وجل

إن الإسلام يعتبر كلا من الطلاق وتعدد الزوجات رخصة فحسب ، يأخذ بها ويأتيها المضطر ، كالرخصة للجائع بتناول المحرمات متى لم يجد سواها . وقد جاء فى سورة البقرة : « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ، إن الله غفور رحيم » كما جاء فى آية أخرى من سورة المائدة : « حرمت عليكم الميتة والدم

ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة والموقوذة . . . . فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم . » فإذا اضطر الإنسان إلى أن يفارق زوجه فارقها بالمعروف ، وإذا كانت هناك حاجة ماسة تضطره إلى أن يعدد فى الزواج عدد محققا العدالة بين أزواجه ، والشرع لم يبح له الرخصة إلا ليخلصه من الحرج فى حياته ، ويضمن له العيش الهادئ المستقر

والإسلام لم يجعل من الطلاق معولا لهدم كيان الأسرة ، ولا سلاحا لتمزيق أواصر الزوجية ، وهو الذى وضع للأسرة من التشريع مايصون بناءها ، وللزوجية مايقوى رابطتها . وأنت إذا تدبرت بعض آيات القرآن الكريم وجدتها تقدس الرابطة الزوجية بوجه خاص ، حين تشير إلى أن هناك امتزاجا بين الزوجين أزليا قديما منذ آدم وحواء..وهذا الامتزاج سيحل بكل زوجين ليمتز كل منها بالرابطة المقدسة التى ربطت بينهما ، ويعمل على صونها من العبث الذى يطوح بها : « ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها . . » — « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها . . . . » — «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . »

إذن فما كان الإسلام ، وهذا شأنه — ليجعل من الطلاق معولا لهدم الأسرة ، ولا سلاحا يشهره الجاهل والأحمق على رابطة الزوجية المقدسة كلما دفعه جهله وحمقه ، ولكنه جعله أبغض الحلال إلى الله فى قوله عليه الصلاة والسلام : « إن أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق » ونهى عنه إلا من ريبة تحوم حول الزوجة فى قوله عليه السلام : « لا تطلقوا النساء من ريبة ، فإن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات . » والإسلام ليحرص على بناء الزوجية وضع كثيرا من العراقيل فى سبيل الطلاق الذى يفرق بين الزوجين ، فقد جعل الطلاق مرتين ليوجد فرصة للصلح ، ودعا إلى تأليف حكمين من أهله وأهلها حين يدب الخلاف ليعملا على الصلح بينهما

وكما أن الإسلام رخص بالطلاق لضرورة تقتضيها مصلحة أحد الزوجين ، أو كليهما ، كذلك رخص للزوج بتعدد الأزواج لحاجة تقتضيها مصلحته هو ، أومصلحة المجتمع الذى يعيش فيه ، فإذا انتفت المصلحة فى الحالين لم يكن ثمة لزوم للرخصة ، وإذا أسيء استغلال الرخصة فأثمرت الضرر والضرار ، كان هذا أدعى إلى إزالتها وإلغائها

وحين يرى المصلحون اليوم وجوب إصدار تشريع يقضى بتحريم الطلاق إلا لضرورة تقتضيها المصلحة . لا يكونون بما يرون متجنين على الشريعة الإسلامية ، وهم لا يرغبون إلا فى أن تتدخل المحكمة أو ما إليها فى مسألة الطلاق ، حتى تقضى على عبث العابثين وطيش الطائشين ، والقرآن نفسه دعا إلى تأليف حكم من أهل الزوج وحكم من أهل زوجه إذا دب شقاق بينهما ، ليتدخلا فى الأمر حتى يصلحا بينهما «وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما » وذلك ليحول الحكمان بينهما وبين الضرار الذى قد يلحقهما، ومن حقهما أن يقررا الصلح إذا رأيا الخير فيه، أو الفراق لمنع الضرر والضرار .
وقد كان رسول الله (ص) حكما فى قضية حبيبة بنت سهل وزوجها ثابت بن قيس وفرق بينهما ، كما كان حكما فى قضية زينب بنت جحش وزوجها زيد ، وحثهما على التوافق حتى قضى الله أمراً كان مفعولا ، وبعث عثمان بن عفان ابن عباس ومعاوية حكمين بين عقيل بن أبى طالب وزوجته فاطمة بنت عتبة ، وقال لهما : «عليكما إن رأيتما أن تفرقا بينهما فرقتما، وإن رأيتما أن تجمعا جمعتما . . . »

وحين يرى المصلحون أيضا وجوب إصدار تشريع يقضى بتقييد الرجل بزوجة واحدة ، إلا إذا كانت هناك حاجة ماسة، لا يكونون بما يرون متجنين على الإسلام ، لأن الإسلام قصد بهذه الرخصة مصلحة الفرد أو المجتمع ، فإذا لم تتحقق المصلحة لم يكن هناك داع إلى إتيان هذه الرخصة ، ولا يعتبر هؤلاء المصلحون بما يرون داعين إلى هدم شرائع الله عز وجل ، فقد نهى رسول الله (ص) أن تقطع الأيدى فى الغزو ، خشية أن يترتب على إقامة الحد ماهو أبغض إلى الله من تعطيله ، ولم يكن رسول الله (ص) هادما

لشريعة الله بالطبع ، وقد أوقف عمر حد السرقة فى عام المجاعة ، وحذف سهم المؤلفة قلوبهم من الصدقات وهو ثابت لهم فى كتاب الله ، ولم يكن عمر فى هذين الإجراءين هادما لشرع الله ، وهو يبغى إزالة الضرر والضرار أو تحقيق المصلحة العامة ، بل إن عمر لما رأى الناس يسرفون إسرافا بغيضا فى النطق بالطلاق الثلاث فى لفظ واحد ، مطمئنين إلى أنه لن يقع إلا طلاقا واحدا ، كما كان على عهد الرسول وأبى بكر — أمضاه ثلاث طلقات حتى يرتدع الناس ويتحرجوا ، ولم يكن هادما لشرع الله وهو يبغى الحد من الإسراف فى الطلاق ، وقال فى هذا : « إن الناس قد استعجلوا فى أمر كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم ؟ » ثم أمضاه

إن الجهلة قد استغلوا رخصتى الطلاق والتعدد أسوأ استغلال حتى شوهوا شريعة الله ، فوجب أن تحرما عليهم كما يحرم على السفهاء استغلال أموالهم ، وأسهموا بأكبر قسط فى اضطراب المجتمع بوثيقة من الإسلام زوروها بجهلهم وسفههم وحمقهم ، فوجب أن تنتزع من أيديهم — إن طوعا وإن كرها — حتى يعود للمجتمع استقراره من جديد ، فلم يكن الطلاق فى الإسلام وسيلة من وسائل الهدم — ولكنه إجراء محظور يلجأ إليه المضطر ولا يتيح الجاهل والسفيه ، وقد قال ابن عابدين من فقهاء الحنفية : « وأما الطلاق فالأصل فيه الحظر — أى الحرمة — والإباحة للحاجة إلى الخلاص ، فإذا كان بلا سبب أصلا لم يكن فيه حاجة إلى الخلاص، بل يكون حمقا وسفاهة رأى، ومجرد كفران للنعمة» ولم يكن المقصود من إباحة التعدد أن يكون ذريعة إلى الإخلال بالمجتمع ، ولا فرصة للجاهل والسفيه يلهوان ويعبثان ، إنما المقصود منه أن يحقق مصلحة الفرد أو المجتمع ، فإذا انقلبت الأوضاع بإساءة استغلال الإباحة ، كان لزاما على ولاة الأمور أن يصونوا رخصة التعدد حتى يصونوا شريعة الله عز وجل . وللإمام محمد عبده كلام فى هذا الصدد ، فبعد أن عدد المآسى الناتجة من فوضى التعدد ، قال :

«أما والأمر على ماترى ونسمع فلا سبيل إلى تربية أمة مع فشو تعدد الزوجات فيها ، فيجب على العلماء النظر فى هذه المسألة خصوصا الحنفية منهم الذين بيدهم الأمر وعلى مذهبهم الحكم ، فهم لا ينكرون أن الدين أنزل لمصلحة الناس وخيرهم ، وأن من أصوله منع الضرر والضرار ، فإذا ترتب على شىء مفسدة فى زمن لم تكن تلحقه فيما قبله ، فلا شك فى وجوب تغيير الحكم وتطبيقه على الحالة الحاضرة : يعنى على قاعدة درء المفاسد مقدم على جلب المصالح . . » اهـ من تفسير المنار ج ٣

وبعد — فإن الإسلام الصحيح ليساير الإصلاح حيثما حل، وفى استطاعة علمائه ذوى الأفكار الناضرة أن يجعلوا الإسلام يتزعم الإصلاح ويقود موكبه ، ونحن اليوم فى الطريق إلى تكوين مجتمع نظيف سليم مستقر ينعم بحياته ويعتز بهـا ، ويفخر به الإسلام لأنه ثمرة من ثمرات تربيته وتنشئته وتوجيهه !

محمد عبد الله السمان

الداء والدواء

للدكتور فضلو حيدر

محاضرة ألقاها فى منتدى البردونى

مهما اختلفت مشاربنا السياسية واعتقاداتنا الدينية ومعارفنا العلمية فأهداف الإنسان واحدة تنحصر كلها بحفظ الذات وضمانة الحياة والتمتع بمقام اجتماعى مرموق

ويحول دون الوصول إلى هذه الأهداف عقبات جمة أقواها وأضرها الجهل . فجهل المرأة مثلا يعنى جهل النشء وانحطاط التربية والثقافة فى الأمة . ويصح أن تكون ثقافة المرأة قياساً للمدنيات نظراً لما للأم من التأثير فى نشوء الأمم

ومن الأمثلة التى توضح جهل الجماعات معدل العمر فى الشعوب . لقد كان معدل عمر الأوربى فى القرون الوسطى تسع عشرة سنة تقريبا . أما اليوم فقد ناهز السبعين من السنين . أما فى الشرق الأدنى فلا يزال معدل عمر الإنسان نحو الثلاثين . وكلنا نعلم بأن هـــذا الاختلاف المخيف فى الأعمار بين الغرب والشرق ، أى بين السبعين والثلاثين ، لا ينطبق تماما على قول الشاعر العربى :

يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول

بل يعود إلى الوعى الصحى فى الأمة وإلى المعارف الطبية . فليقدر كل منا الخسارة الهائلة التى يضرب بها الشرق بموت أطفاله وشبانه قبل الأوان

وبما أن وقت المحاضرة محدود فسأحصر حديثى الليلة فى المعارف الصحية

فماذا يجب أن يعلم كل منا عن العيلة ؟

العيلة أساس المدنيات . وغايتها القصوى ضمانة النسل وحقوق الأولاد الاجتماعية وتربيتهم تربية صحيحة صحيا وسلوكيا ومعرفيا

ولذلك يجب أن يفحص الطالب قبل زواجه ضماناً لحياته وسلامة للنسل . ومع أن روابط العيلة مقدسة فى الأديان وتضمنها نظامات اجتماعية فى الأمم المتمدنة ، فإن العيلة لن تثبت واقعيا على أسس متينة إن لم ترتكز على صفات نفسانية مغروسة غرساً صالحا بالتربية الراقية الواعية . وذلك يشير إلى تربية الأنانية والجنسية . أى يجب أن نحول الأنانية والجنسية من نوازعهـا الفطرية إلى الحب والاحترام بين الجنسين . فتوجه الأنانية من « ليتك تموتين قبلما أعطس أنا » إلى عاطفة التعاون والمشاركة وإنكار الذات ضنا بسلامة العيلة وسعادتها وتقديسا لغايتها القصوى . فكيف يمكن أن تثبت العيلة فى المجتمع إذا كان هم كل من الشريكين محصوراً فى فرض سلطته وإبراز رأيه . وكم من الشبان يجهلون غاية الزواج وماهية الأب والأم فى العيلة والمجتمع . وكم ينتج عن هذا الجهل من التعاسة والإجرام فى المجتمع

ومن أقدس واجبات الوالدين تربية أبنائهم وتدريبهم على الأساليب الصحيحة النافعة فى الحياة ، ورعايتهم إلى أن تصبح تلك الأساليب عادات ثابتة يسير النشء بموجبها بديهيا كالغرائز لمنفعته الصحية والاجتماعية والعملية . فاتقاء الأمراض مثلا يصبح بالتربية عادة تعمل يوميا بدون تفكير أو تفسير.. كغسل اليدين قبل الطعام وبعده ، وتنظيف الفم بعد الأكل وقبل النوم ، والاستحمام يوميا . وقس على ذلك كل العادات والتقاليد من اجتماعية ودينية ، والأعمال والحرف اليومية كسياقة السيارة وآداب المائدة والرقص والموسيقى والمحافظة على النظام والمواعيد واحترام حقوق الغير — كلها تكمل متى أصبحت عادة

ومن واجبات الوالدين الاهتمام بحواس الأولاد كالسمع والبصر لأنها مداخل المعرفة ، وأى نقص فيها يؤدى إلى تأخر الولد فى نموه العقلى والسلوكى فى البيت والمدرسة والمجتمع . وكذلك يجب أن يعالج أى تشوش كان فى النطق والحركة وهى سبل النجاح فى البيئة كى لا يصبح الولد أضحوكة بين رفاقه

وعلى الوالدين أن ينتبهوا إلى سلوك البنين فى اللعب والدرس والعمل؛ إذ كم من المرات يكون فشل الولد وبكاؤه وكسله وحزنه

ناتجا عن ضعف صحته أو نقص غذائه أو فقر دمه أو تشوش في حواسه

واعوجاج السلوك يستوجب علاج النفس بسبل علمية ، لا بالانتهار والقصاص والضرب ، لأن هذه العلاجات تؤدي إلى زيادة إدماء الوجدان واعوجاج السلوك في الكبر

وضروري أن يفحص الولد طبيا في فترات متعددة وطبعا كلما دعت حالته الصحية ، كي لا يداوي ألم البطن بشربة وهو من التهاب الزائدة ، ولا القيء بلزقة وهو من مرض السحايا الدماغية (منتجيت)

ويفحص الطفل في الحول الأول مرة كل شهر يدون فيها وزنه ونموه الجسدي والعقلي والعاطفي

فالتربية أي السلوك الحسن والقبيح هي حظنا في الحياة من لطفاء أو ثقلاء ، وناجحين أو خائبين . وفي الصغر يمكننا أن نربي مثلا روح التعاون بتعويد الأولاد أن يلعبوا ويعملوا جماعات أو العكس بالعكس ، أو أن نربي الخوف بزيادة الإرهاب والتعذيب ، أو أن نربي الخمول والقناعة في التفكير والتفسير بانتهار الولد كلما سأل مستعلما ، وبإعطائه تفسيرا سخيفا يغلق في ذهنه باب الحشرية ، والتطاول بدلا من إنعاش روح الشك والبحث والتحري بحسن التفسير والتشويق والمكافأة والتشجيع والمساعدة . وقس على ذلك تربية طابع الحسد والغيرة والنقمة ، أو خلق عمل الواجب واحترام حقوق الجماعة وكلها أمور فعالة في مستقبل النشء ونجاحه أو إخفاقه

والخلاصة أن صفاتنا من حسنة أو قبيحة ومعارفنا من عالية أو سافلة لم تولد معنا . وما يتبجح به التمدن من ثقافة راقية على الهمجي والأمي لم يولد معه ؛ بل اكتسبه في البيت والمدرسة والمجتمع

وسأنتقل الآن بكم من الصغار إلى الكبار . فماذا يجب أن يعلم كل منكم عن إطالة العمر ؟

(١) الأمراض السارية

لا مفر من الموت . ولكن من الممكنات أن يعيش الإنسان مدة قرن متمتعا بصحة جسدية وعقلية ونفسانية لا بأس بها .

لقد كانت الأمراض السارية كالطاعون والجدري والكوليرا والسل في الماضي القريب من أكثر مسببات الوفيات . أما اليوم فقد تغلب عليها الطب تقريباً في كل العالم . فبعضها قد زال والبعض الآخر قد ضعف فتكه . كذلك قد زالت تقريباً أمراض الأطفال التي كانت تحصد الأرواح في السنين الأولى من العمر بفضل انتشار المعارف الصحية بين الشعب ، وتقدم العلوم الطبية في الغذاء والدواء والوقاية

والوقاية خير من العلاج . فالوقاية العمومية من واجبات الحكومات ومنها الحجر الصحي وتجفيف المستنقعات وتصفية مياه الشرب وتنقية المراحيض وتعقيم أو حرق فضلات المدينة . فالوقاية العمومية أراحت الإنسان المتمدن من البرغش والذباب والهوام وغيرها من ناقلات الميكروبات ؛ وبفضلها تلاشت في العالم الملاريا والحمى الصفراء والكوليرا والتيفوئيد

ومن سبل الوقاية في بعض الأمراض القتالة التطعيم ؛ فهو يولد في الجسم مناعة تامة في الجدري والكلب ، وجزئية ومؤقتة في الخناق (ديفتريا) والتيفوئيد والشهقة وغير مقررة في السل

ومن طرق الوقاية العابرة حقن المصول في الخناق والكزاز ، ونقل دم الإنسان الصحيح أو مصل دمه أو غلوبيولينه إلى الأولاد المعرضين في حميات الأطفال القتالة كالشاهوق الخبيث والحميرة السوداء

ومن سبل الوقاية المؤقتة الابتعاد عن المرضى . ولرب سائل يقول : هل الأفضل إبعاد الأولاد عن إخوانهم المرضى في « مواسم » الحيات أو تركهم على الطبيعة ؟ أقول : إن الأفضل تركهم إلا إذا كان الوافد شديد الوطأة . وعدا ذلك لا خوف على حياتهم . فلا فائدة من الإبعاد لأن تلك الأمراض ستعودهم كباراً حيث تكون أشد خطراً كالحميرة الألمانية (Rubella) مثلا ؛ فإنه مرض بسيط للغاية في الصغار ولكنه في الحبالى يسبب أحيانا تغيرات عصبية في الجنين تظهر فيه بعدئذ عاهات عقلية . وكذلك مرض

أبو كعيب فإنه سهل فى الأولاد ولكنه يسبب فى البالغين أحيانا العقم والاختلاطات الدماغية والكلوية

ولا يزال السل من الأمراض القتالة بالرغم عن « الستربتوميسين » و « الباز » ومركبات « الايزونكوتنيكو » كا « لريميفون » و « النيدرازيل » والجراحة . والوقاية منه تكون بحسن التغذية والحياة الصحية والتطعيم . ومن الضرورى اكتشافه باكرا لمنع العدوى وسهولة الشفاء . ولذلك كان من الواجب فحص التلاميذ والعمال با « لتيوبركولين » والأشعة والفحص الطبى العادى مرة كل سنة على الأقل فى الأحوال الصحية

(٢) السرطاں

وماذا أخبركم عن السرطان ؟ فقد زاد عدد ضحاياه فى هذا العصر . ومع أننا نجهل سببه فإننا نعلم شيئا عن بعض العوامل التى تهيء حدوثه أو تحبذه كالتحريش المزمن (مثلا بين اللسان والأضراس النخرة) والالتهابات المزمنة ، والقروح القدمة والبثور الطويلة العهد . ويزعم بعض الأطباء أن اختلالا ما فى إفرازات الغدد التناسلية يوقظ بعض الخلايا العادية أو الامبريولوجية فيسرطنها

والوقاية منه تكون بمنع الأسباب المحبذة حدوثه ، كمعالجة الأسنان النخرة والالتهابات المزمنة والثآليل المعرضة للفرك والاحتكاك ، وباتباع نظام صحى بأن يزور الإنسان طبيبه مرتين سنويا بعد الخمسين من العمر فى حالته الصحية

والسرطان قابل الشفاء إذا اكتشف باكرا ؛ أى عندما يكون محصوراً أى قبلما ينتشر بالأنسجة المجاورة أو البعيدة . والسرطان الخارجى — الجلدى مثلا — يشفى بمعدل ٩٠ بالمئة لسهولة اكتشافه . وكلما بعد وقت تشخيصه نقص ، لسوء الحظ ، الأمل بشفائه

وأهم علاجاته إلى اليوم الجراحة والأشعة والمعادن المشعة ونزع الغدد التناسلية (الخصى الجراحى) وحقن الخلاصات التناسلية من جنس مخالف لجنس المريض . وعلماء السرطان تبحثه ليل نهار ، وأملنا كبير بأنهم سينتصرون قريباً على هذه الآفة القتالة

(٣) الشيخوخة

وهنالك مصائب عديدة غير الأمراض المعدية والسرطان تقرب الأجل ؛ تحدث من تغيرات عضوية فى القلب والشرايين والكبد والكلى ندعوها أمراض الشيخوخة

ومع أن طول العمر وراثى فإنه يتراوح فزيولوجيا حول المئة من السنين . ولكن لا يصل الإنسان عادة إلى هذا الحد لأسباب طارئة من متاعب الحياة فتتبخر السنون قبل أوانها . فكيف نتمكن من إبعاد حلول الشيخوخة ؟

للكلام بقية

فضلو حبدر

من سير الخالدين

نابليون .. وجنوده .. وقواده .. !

للأستاذ عبد القادر حميده

شرع الكتاب فى هذه الأيام أقلامهم .. بعد أن غمسوها فى مراجع التاريخ .. ينقلون عن صفحاته وسطوره سيرا ملوثة لملوك غابرين .. فيعددون مساوئ هذا .. ويرددون هفوات ذاك .. وعلى الجملة فهم يقدمون إلى القراء حياة تضج بالشهوة .. وتزخر بالفسق .. وتحفل بالفجور ..!! حياة لا تهدف إلا للمتعة .. ولا تنشد إلا العبث .. وفى اعتقادى أن مثل هذه النقائص المنتقاة من كتب التاريخ .. التى تعرض اليوم على الأعين .. وتلقى على الآذان .. لا تحط إطلاقا من قيمة الملك السابق .. ولا تصيب منه مرى .. لأنه سيشعر — على الأقل — بأنه لم يقترف هذا الجرم وحده .. بل سبقه ملوك سالفون .. لم يبلغوا ما بلغه من الترف والأبهة .. وتلك لعمرى مؤهلات العربدة ..!! كان الأحرى بالكتاب ... أن يتخذوا من صفحات الجرائد لوحات يسيطرون عليها أمثلة من .. الشرف .. والعفة .. والكرامة .. والنزاهة .. وكراهية الذات .. والحنو على الشعب .!! لأناس دستورهم هذا ، ولدينا كتب التاريخ حافلة ؛ وبهذا يدرك الملك السابق كما يطمئن جمهرة الناس إلى أنه طرق باب النزوات وحده، وسلك دروب الشيطان بمفرده ، وانساق أمام تيار جارف من النشوة الزائلة ، لا تحوطه إلا حاشية لم تكن تريد إلا تحقيق أطماعهم الشخصية .. ولو على حساب تلويث صفحة تاريخية . !

وحين يدرك فاروق أنه وحده نشز عن طبيعة الخلق — بعد أن يدرك القراء أيضا — سيتضاعف شعوره بالألم — إن كان لديه بقية من ضمير — ويحس بالوخز أشد إيلاما ، وأحد نصلا ! وإنى إذ أقدم اليوم إلى قراء الرسالة جانبا من حياة نابليون إنما آمل أن ينهج إخواننا الأدباء هذا النهج ، ويسيروا على ذلك الدرب :

... كان نابليون شديد الانتباه إلى أصاغر جنوده لاعتقاده أن الجندى الصغير قد يكون ذا قلب كبير ، وأن حسن المعاملة مدعاة لزيادة الإخلاص ، قال دوق فيسالس « إن تلك الشوارب القديمة (يعنى رجال الحرس) لم يكونوا يجسرون على مخاطبة أصغر ملازم فى الجيش بمثل ما كانوا يخاطبون ذلك القائد الأكبر الذى كانت هيبته تملأ نفس الجيش كله » ، وقال دون باسانو : « إنى رأيت الإمبراطور مئة مرة ينتقل ليلا من معسكر إلى آخر ، ويقف هنا وهناك لدى النيران ويسأل عما يغلى فى القدر ثم يتهقه من الأجوبة المضحكة التى كان يسمعها من الجنود » ، وقال القومندان كلود بزجيه فى تاريخه « يا لله ، ما أعرف نابليون بالجندى الفرنسى ، وما أقدره فى مخاطبته والضرب على أشد الأوتار تأثرا فى قلبه أعنى وتر الشرف » ولقد وصف نابليون نفسه الجندى الفرنسى فى صفحة جميلة قال فيها : « إن الجندى الفرنسى رجل مفكر قاسى الحكم فيما يتعلق بشجاعة ضباطه ومواهب رؤسائه ، وهو يجادل رفيقه فى شأن الخطط والأساليب الحربية ، ويستطيع القيام بأى عمل من الأعمال إذا كان لرؤسائه حرمة فى نفسه وإذا كان هو يستحسن مجرى الأحوال الحربية ، أما إذا كان الأمر على العكس فلا تمكن الاعتماد على الفوز . وابن فرنسا هو الجندى الوحيد بين جنود أوروبا الذى يستطيع القتال ويقوم بجليل الأعمال وهو ضامر البطن مطوى الأحشاء على الطوى ، ومهما طال زمن المعركة فهو ينسى الأكل فى سبيل الفوز ، حتى إذا انتهى القتال صارت مطالبه أكثر من مطالب غيره . والجندى الصغير من الفرنسيين أشد اهتماما بإحراز النصر من ضابط روسى ، وهو يدعى أن الفضل الأكبر فى كل نصر يرجع إلى فيلقه ، وجملة القول أن جنود الأمم الأخرى تصبر يوم الوغى بحكم الواجب ، والجندى الفرنسى يحارب إجابة لصوت الشرف.. فإذا أصابه فشل شعر بأن نفسه ذليلة.. وإذا فشلت الجنود الأخرى عادت غير مكترثة »

وربما كان رأس الأمور التى حملت نابليون على تسمية الوسام الذى أحدثه « بوسام جوقة الشرف » ما كان يعرفه من رسوخ ذلك الشعور فى نفس الفرنسى ، وإذا رجعت إلى الأوامر العسكرية وخطب التحريض التى كان يلقيها عليهم أبصرته يحاول فيها كلها أو جلها أن يظهر للجندى ما يحرزه من الشرف والفخر

هو وآله إذا عاد وإكليل النصر يزين جبينه ، ولقد كان الأعداء أنفسهم يعرفون أن قوة الجندى الفرنسى إنما هى بمواطفه ومشاعره ، لا بقوة ساعديه وعرض كتفيه ، قال أحد القواد البروسيين بعد معركة يانا : « لو كان علينا أن نقاتل الفرنسيين بسواعدنا فقط لأدركنا النصر فى وقت قريب ، لأن الجندى الفرنسى صغير ضئيل يستطيع ألمانى واحد أن يتغلب على أربعة مثله ، ولكن هؤلاء الجنود الصغار ينقلبون إلى طبقة فوق طبقة البشر تحت النيران ويندفعون بنخوة لا نستطيع إيضاحها ولا نرى لها مثيلا فى جنودنا » ولا شك فى أن هذا الإقرار من ضابط بروسى كان من أجل الشهادات التى تسطر للجنود الفرنسيين

وكان نابليون لا يكتفى بإظهار الاحترام والميل إليهم من أجل تلك الفضيلة ، بل كان يحبهم حبا صادقا، قال بعض المؤرخين: إن جنوده كانوا أولادا له بالمعنى الصحيح؛ يشرف على أمورهم ويسهر عليهم كما يسهر الأب على بنيه ويحضر توزيع الأكل عليهم ويتناول الحساء معهم .! وكان نابليون يضع اللين فى محله والقسوة فى موضعها ، فيعفو عن الجندى المذنب إذا رأى وجها لعذره أو ما يخفف ذنبه ، ولا يتسامح إذا وجد التسامح مضرا بالمصلحة الحيوية ، وإليك أقصوصة تدلك على شىء من خلقه :

حدث أيام معارك بروسيا أن الجنود الفرنسيين ضربت مضاربها لتستريح بعد السهر المضنى ثلاث ليال متتالية ، ولما جاءت العتمة خرج نابليون يتفقد أحوال الحراس فى أطراف المعسكر جريا على عادته فى كثير من الأحيان ولا سيما فى الأوقات العصيبة ، فاتفق أنه رأى حارسا برح به الوصب وتسلط عليه الكرى بعد السهر الطويل فهوى إلى الأرض ، ونام ، تاركا بندقيته إلى جانبه ، فأراد نابليون أن يوقظه ولكنه أبصر فى تلك الدقيقة طوافة من الضباط قادمة نحوه فأخذ بندقية الحارس النائم ووقف مكانه حتى لا يدع الضباط يبصرون به ويعاقبونه ، ولما طلبت الطوافة سر الليل أجابها نابليون فسارت فى طريقها لإتمام التفتيش ، وفى تلك الأثناء استيقظ الحارس النائم فوجد بندقيته بيد رجل غيره فأسرع نحوه فإذا هو قائده ومولاه ، ولكن نابليون سرى عنه قائلا : لا تخف ، ثم سأله : كم مضى عليك من الزمن بلا نوم ؟، فقال : ثلاثة أيام ، ومع ذلك ما كنت لأنام لولا ما أصابنى من الجروح ! ثم أبصر نابليون أن الجندى كان مصابا بجرحين فأعجب به ، ومنحه وساما ، ثم قال وهو يبتعد عن ذاك البطل : « لا ريب أنى أستطيع فتح العالم بهؤلاء الرجال .. » وكان نابليون يعرف وجه الضعف فى رجاله ، فيأخذهم به ويضرب على الوتر الحساس من أوتار قلوبهم ، فمن شأنه المعروف أنه كان مع شدته فى المحافظة على النظام العسكرى يسمح لرجال الحرس القدماء الذين حضروا المعارك وأبلوا البلاء الحسن بأن يخاطبوه بصيغة المفرد بعكس ما يقضى به أدب الحديث فى اللغة الفرنسية ، ولا سيما إذا كان المخاطب كبيرا والمخاطب صغيرا ، فإن استعمال صيغة الجمع فى الكلام واجب لا يصح إغفاله ، على أن نابليون كان يعلم أن عادة أولئك الأبطال التى تدل على انتفاء الكلفة صارت إليهم من روح الجمهورية ، وأنها تنطوى على همة واحترام يسهل فى سبيلها بذل المهج الغالية

وكان نابليون قبيل عرض الجنود يدعو الكولونل ويسأله عن أسماء الذين امتازوا فى المعارك الماضية ويطلب بعض أخبار عن أعماله ، ثم يمر وقت العرض بأولئك الجنود الممتازين فيذكر لكل منهم اسم المعركة التى امتاز فيها والمكافأة التى أخذها ويسأله عن أمه العجوز إن كانت حية .. أو عن غيرها من آله الأقربين..فيطير الجندى منهم فرحا وطربا حين يرى قائده الأعظم يتذكر خدمته ويعنى بأمره ، ثم يصبح نابليون حديث النهار وسمر الليل بين الجنود كلهم .. فيأخذ كل منهم يحكى حكاية عن ذاكرته العجيبة ومعظم تلك الحكايات من بنات المخيلات !

وكان من أكبر العوامل فى تفانى الجنود أن كل واحد منهم بات يحسب نابليون منصفا للشجعان وذوى الكفاءة الحربية ، وكان كبار القواد أقوى البراهين الحية لديهم على صحة ذلك الاعتقاد ، فإنهم خرجوا من الجيش وبعضهم استوى على العروش مثل المارشال مورات الذى عين ملكا لنابلى ، وبرنادوت الذى استوى على سدة أسوج ، ومعظم الجنود كانوا يرون الرقى إلى أحد العروش رتبة عالية من الرتب التى كان نابليون يمنحها لرجاله فيقولون مثلا ، « فلان صار ملكا . . كما يقولون . . فلان رقى إلى رتبة كولونل » مع مراعاة النسبة بين الرتبتين . ! وهناك أمر آخر كان نابليون يعنى به عناية خاصة وهو تعزيز ما يسمونه

«روح الفيلق» فى الجيش، ومعناه بعبارة أخرى أن يفرغ القائد جهده فى زيادة التنافس الشريف بين فيالق جيشه .. فتتسابق فى مضمار الشجاعة والبأس، ولقد نجح نابليون نجاحا باهرا فى هذا السبيل حتى صار كل فيلق من فيالقه بل كل آلاى من آلاياته يعد نفسه فى مقدمة الجيش .. ومما يذكر عن سمو الأساليب التى كان يتبعها نابليون لبلوغ المقصد أنه كان إذا رأى النصب والجوع ينهكان تلك الجنود الفولاذية كما كانوا يلقبونها، نزل هو وسار مع الجنود، فأخذ كل واحد من هؤلاء يقول «الإمبراطور .. الإمبراطور» وتغيرت مشية الفيلق كله كأنما تيار كهربى سرى إليه من أوله إلى آخره .! هكذا كان نابليون وهكذا كانت جنوده. وكل فريق منهم خليق بالآخر.

... كان نابليون ينظر إلى الجيش كما ينظر الصانع العالم إلى آلة عظيمة يقتضى تركيبها تدقيقا شديدا وفكرا سديدا، ولذلك كان يفكر فى كل ما قل وجل من أموره حتى انتقاء الخيل وشراء المؤونة اللازمة لما كما تدلنا رسائله المدهشة، وليس بنا حاجة إلى القول أن اختيار قواده كان له الشأن الأكبر لأنهم القطع الرئيسية التى تتركب منها تلك الآلة العظيمة .! ولم يكن فى وسع نابليون منذ مائة وثمان وستين سنة أن يختار قواده من الضباط الذين قضوا سنوات عديدة فى درس القواعد العسكرية لأن التعليم العسكرى لم يكن شيئا مذكورا فى ذاك الوقت، والفضل فى كثير من القواعد الحربية الباقية حتى اليوم يرجع إلى نابليون نفسه، وما كانت عظمة هذا البطل الذى لم تحط مثله أصلاب البشر قائمة ببسالته وانتصاراته فقط.. بل كانت تقوم بها وبنظاماته ومبتكراته وعبقريته العجيبة الشاملة، وعليه فإن نابليون لم يكن له مندوحة — وتلك حالة التعليم العسكرى فى زمانه — من أخذ أولئك القواد الذين خلد التاريخ ذكرهم من صميم جيشه، أى أفراد الشعب الذين قاتلوا فى سبيل الدفاع عن حريتهم وحرية وطنهم وصدوا دول أوروبا التى هبت لإذلالهم. وكان نابليون قوى الفراسة صادق النظر فى الرجال .. فاستطاع أن يقدر قدر كل واحد من الذين خدموا تحت إمرته ونوع الخدمة التى كان يمكنه أن يتفوق فيها. مثلا أنه رأى «مورات» فأدرك أنه خير رجل يقود كوكبات الفرسان ويقدم لها المثل الأعلى بنخوته وحميته وشجاعته، وقرأ

على جبين «ناى» أنه الرجل الذى يطير إلى الحمام فى صدر الشباب، وما أخطأ ظنه فى أن «ناى» كان يسحر رجاله بالقدوة الحسنة وهو الذى أخذ بندقية فى معركة «واترلو» وصاح «تعالوا انظروا كيف يموت مارشال من مارشالية فرنسا .. »

وهو الذى قال فيه نابليون: «ما هذا رجل إن هو إلا أسد من الأسود .. » وليس مجال كاف لنذكر ما أبداه كل قائد من القواد العظام فحسبنا أن نذكر مع «مورات» و«ناى».. «بسيير» و«سول» و«لان» و«سوشيه» و«برتييه» و«دافو» و«جوفيون سان سير» و«أوجيرو» و«جونو» و«ماكدونالد» و«مسينا» و«لازال» و«كولنكور».. فهؤلاء وعدة من الأبطال كانوا أسودا لا تقهر، ولكن نابليون كان يخضعهم بنظرة وهو فى ذروة مجده الحربى!

وذكر نابليون خطة سلوكه مع قواده قال: «كنت أحر الرأس البارد .. وأبرد الرأس الحار» أو بعبارة أخرى أنه كان يكسر من حدة الحديد ويثير حماسة البليد مراعاة لمقتضى الحال، وهى خطة بسيطة فى ذاتها ولكن تنفيذها مع قواد نابليون كان يقتضى عقلا كعقل نابليون.

وكان من مزايا الرجل أن يزن حسنات كل قائد، فإذا رجحت سيئاته حاول أن يصلحه بحذق ومهارة فمن الحوادث المعدودة من هذا الطراز أنه شرع يوما فى تعنيف ضابط فى رتبة كولونل لأن جنوده أضروا بمصالح إحدى الدساكر. فشق على الضابط أن يسمع الكلام المر من قائده وأراد أن ينفصل.. فقال نابليون همسا: «أنا صدقتك فاسكت» وفى اليوم التالى دعا نابليون الكولونل وقال له: «كن مستريح الفكر فقد كنت أعنف فى شخصك بعض الجنرالية الذين كانوا بجانبك. ولو وجهت إليهم التعنيف مباشرة لأوقفتهم فى موقف يستحقون فيه التحقير أو ماهو أبلغ منه.» وإذا اتفق أنه جرح فى حديثه قائدا كبيرا.. حاول بعد الحديث أن يضمد جرحه. فمن ذلك أنه انتقد انتقادا شديدا الجنرال «مارمون» على بعض الأعمال الحربية فى معركة «واجرام» فسخط «مارمون» من هذا الكلام وعاد إلى منزله كسير القلب.. شديد الكرب.. فما وصل حتى جاءه رسول إمبراطورى يحمل إليه البشرى.. بترقيته إلى رتبة.. مارشال!

ولما أخذ العدو بلدة مونترو سنة ١٨١٤ رأى نابليون أن تأخر المارشال فيكتور كان السبب فى ضياعها وأصدر إليه إذناً فى ترك الجيش.. ومعلوم من هذا الإذن أنه لم يكن له من معنى إلا سخط الإمبراطور عليه . فجاء المارشال فيكتور وعيناه مغرورقتان بالدموع فقابله نابليون وهو يتميز من الغيظ وعيره بالخطأ الذى ارتكبه واستحق من أجـله الإبعاد عن الجيش . . فلم يتمالك المارشال أن رفع عقيرته وأكد إخلاصه وذكر خدماته فى إيطاليا فسكن غضب نابليون لذكر تلك الخدمات ثم صافحه قائلا : «لا بأس من أن تبقى فى الجيش يا فيكتور ولـكنى لا أستطيع أن أعيد إليك فيلقك بعد أن عقدت لواءه « لجيرار » وإنما يمكننى أن أوليك قيادة فرقتين من الحرس فاذهب واستلم قيادتهما ولا تذكر بعد اليوم شيئا مما جرى . . »

ولو شئنا أن نذكر ما لدينا من هذا الطراز لاستغرق مجالا واسعا وتجاوز بنا الغاية المقصودة فى هـذا المقال . . فحسبنا أن نقول — ومذكرات « مارمون » الذى خان نابليون فى أواخر عهده — خير شاهد . . أن نابليون كان فى معظم الأوقات يجرح باليمين ويضمد باليسار . . ومما قاله الخصوم فى تفسير هذا السلوك الحميد « أن مصلحته الخاصة . . وقلة الرجال الأكفاء حملتا نابليون على مداراة رجاله » وهو تفسير لا يذهب بفضل نابليون . . ولا يحط من قدر سلوكه.. بل هو يدل على حسن سياسته وأصالة رأيه ، وليس بمنكر على الرجل أن يفعل الخير ويحسن الصنع لأنه يتفق مع مصلحته . . أو لأن مصلحته كانت تدفعه إليه . . فإنما الأمور بنتائجها . . وكل من يذم مثل هذا المنهج يكون مثله مثل من يطعن على رجل ينقذ آخر من الغرق لأنه أراد الحصول على وسام الإنقاذ أو مكافأة أخرى . . ! !

وإذا طالعنا المذكرات الخاصة وجدنا فيها ما يدل على شدة حبه لقواده . قال « كونستان » بعد النصر الباهر الذى أحرزه نابليون فى مارنجو : « إنه مع النصر الفاصل الذى أوتيه القنصل الأكبر (أى نابليون) كنت أرى الحزن يملأ نفسه وأسمعه يردد « إن فرنسا فقدت بفقد « دسكيس » فتى من خيرة أبنائها . . وفقدت أنا صديقا من أبر الأصدقاء »

ولما استوى نابليون على العرش الإمبراطورى لم يتغير شىء من عواطفه نحو قواده ، بل لبث يسمح للمارشال « لان » بأن يخاطبه بصيغة المفرد . . ولما بلغ نابليون خبر إصابته بجرح قاتل تولاه حزن عظيم وأخذ يزوره صباحا ومساء . . واتفق أنه وصل فى عيادته الأخيرة بعد أن لفظ المارشال روحه الطيبة . . فتقدم نابليون وقبله وبكى ثم أخـذ يهمهم «ياللخسارة فرنسا . . . ياللخسارتى » ولما حاول « برتييه » أن يبعده عن رؤية ذلك المنظر الأليم قاومه نابليون نحوا من ساعة

وفى اليوم التالى كتب نابليون إلى أرملته يقول : «أيتها النسيبة مات المارشال على أثر الجروح التى أصابته فى ساحة الشرف فخلف لى من الحزن ما يضارع حزنك . . ولا غرو . . فإنى فقدت بفقده أفضل قائد للجيش وخير رفيق وصديق لزمنى منذ ست عشرة سنة.. إن أسرته وأولاده لهم كل حق فى طلب حمايتى ورعايتى » ثم كتب إلى الإمبراطورة « إذا أمكنك أن تساعدى فى تعزية أرملة المارشال فافعلى » ولما أصيب « دروك » بقنبلة عند « درسد » ذهب إليه الإمبراطور نابليون وضمه إلى قلبه مرارا ثم عاد خائر القوى لفرط الأسى . . وهو يقول : « ياللهول . . أيها العزيز دروك ما أعظم خسارتى فيك » وكانت دموعه تسيل على خديه وتسقط على ملابسه

ثم أمر الإمبراطور بشراء أرض وإقامة تمثال لذلك القائد العظيم وبكتابة العبارة الآتية تحت التمثال « هنا يرقد الجنرال دروك دون فريول وأحد مارشالية نابليون العظام أصابته قنبلة فمات ميتة مجيدة بين ذراعى الإمبراطور » . . ولم يكتف نابليون بإكرام هذا الفقيد بل صرف عناية كبيرة إلى عائلة دروك ومنح أرملته وابنته دوقية فريول (وكان ريعها وقتذاك لا يقل عن مائتى ألف فرنك)

على أن هذا الشعور الجميل الذى كان يبديه نابليون فى مثل تلك الظروف لم يكن يحول دون استقلال فكره وإرادته ، فقد كان عند الضرورة شديدا قاسيا . . وثبت أنه كان فى إيطاليا ومصر حين كان جنرالا كبير المطامع.. أشد وأقسى فى معاملة القواد والجنود مما كان عليه بعد استوائه على السدة الإمبراطورية واستلامه مقاليد الحكم المطلق واتساع شهرته وسطوته فى العالمين . . قال خصوم نابليون أنفسهم فى مذكراتهم : « إن هذا الجنرال الصغير كان يخيف

شـــــلر

للكاتب الكبير توماس كارليك

ترجمة الأستاذ يوسف عبد المسيح ثروت

— ٢ —

كانت حياة شلر حياة أدبية بكل معنى الكلمة ، حياة شخص عاش قصد التأمل ، وكان مرشده فى هـذا السعى لايتعدى المثل الأعلى ، وقـد وجد فى مثـل هذه الحياة سعادته التى كان يرنو إليها . وقـد امتازت هـذه الحياة بالبساطة الفريدة كما اتصفت بالابتعاد عن امتهان ما يتعيش به ، وقد نما مقته للعمل الآلى ولم يبال بنتائجه جنباً لجنب مع نموه الروحى سنة بعد أخرى . لم يحتل شـلر منصباً معيناً اللهم إلا منصب الأستاذية فى الجامعة ، ولم يرغب فى التقدم المادى ولم يكن لديه مال يذكر ، ولم يظهر — طيلة حياته — عدم رضائه عن هذه الأوضاع

وبالرغم من الآلام الجثمانية والأمراض المستمرة التى أحاطت به أن انشراحـه لم يكن يفارقه وكانت الخمس عشرة سنة الأخيرة من حياته هى أحسن سنى حياته ، لأنها كانت أنقاها وأصفاها وأكثرها إنتاجا ، فحياته كانت تشبه حياة الرهبان مع اختلاف بسيط فى طراز المعيشة والمحيط ، وإذا نحن عرضنا الإيمان الكاثوليكى يمثل الفن الأعلى ، والقوانين الكنيسية بالقوانين الأدبية والجمالية فسيؤدى ذلك إلى اعتبار حياته أقرب ما تكون بحياة الدير ، ومع أنه لم يرتبط بعهود الرهبنة الثلاثة [1] إلا أنه ارتبط بعهود أخرى أرفع شأنا وأعلى قدرا وأثقل وطأة ، وقد تحمل عناء شديدا فى تنفيذها والتقيد بها والالتزام بملتزماتها

وقد كانت هذه العهود — على شدة ثقلها — شغله الشاغل ومبعث سعادته الدائمة ، فبدلا من أن يحصر نفسـه فى رواق الكنيسة الصخرى ، نراه يحصر نفسه فى أروقة العقل ، فاصلا بذلك نفسه من الأمور السطحية ومفرغا نفسه فيما يمكن أن ندعوه بالأمور الإلهية ، فكلامه وأعماله وتأملاته وتنزهاته وكل ماله علاقة بحياته اليومية تتجه نحو تلك الوجهة ... فكما أن مرحلة اتخاذ الرجل الدينى للعهود المقدسة هى أهم مرحلة فى حياته.. كذلك الحال مع شلر فيما يخص عهوده الأدبية ، وبهذا العمل يمكنه أن يتخلص من مشاغل العالم المحيرة ويكرس كل جهوده فى مستقبل أيامـه للحكمة والتأمل . والفترة التى تقع بين هاتين المرحلتين تمتاز بميزات مختلفة . فالأولى هى دنيوية ذات انهماك فى صروف العالم.. والثانية روحية ذات اتجاه هادئ عميق الغور قصى المعانى ، وقد امتاز الاتجاه الثانى بنموه الروحى وازدهاره الفكرى وبالثمرات السلمية التى قدمها إلى العالم ، وسنوجه عنا نظرنا بصورة رئيسية إلى المرحلة الأولى

يمكن اعتبار شلر سعيدا بالنسبة للظروف التى أحاطت بأعوامه الأولى وخصوصا فيما يتصل بوالديه . لم يكن والداه غنيين أو مستقلين فى شؤونهما الماشية ، إلا أنهما مع ذلك لم يكونا فقيرين

(١) عهود الرهبنة هى ١ الفقر ٢ العفة ٣ الطاعة

قوادا مثـل « أوجيرو » « وماسينا » وغيرهما سنة ١٧٩٦ ولما جاء الجنرال « دينوا » سنة ١٧٩٧ بقصد التملق والزلفى قال له نابليون : «عرفتك لما كنت قائدا فى لومبارديا وعرفت أنك قليل النزاهة . . عاشقا للمال . . على أنى كنت أجهل أنك جبان » فاخرج من الجيش ولا تظهر أمامى مرة أخرى . . وكتب نابليون إلى « برتييه » يقول : « اكتب إلى الجنرال « جاردان » أن شكاوى عديدة انتهت إلى من إحراجه لأهل البلاد وأن الواجب عليه أن يسلك سلوكا يتفق مع كرامة الجيش فلا يسمعنى بعـد اليـوم شكوى واحدة من تصرفه » وكتب إلى الأميرال « تروجيه » : « لا يسمعنى إلا الاستياء من الأسطول الذى تحت إمرتك . . وأنا يحق لى أن أنتظر محاسن الأفعال بدلا من المواعيد والأقوال »

وكان نابليون لايحابى الوزراء.. ولا الكبراء.. حتى فى سنة ١٨١٤ أى بعد أن مال نجمه إلى الأفول . وهذا يدلنا على صحة ماقاله أحد المؤرخين وهو : أن نابليون لم يكن ذئبا ولا خروفا .. بقى أن نعرف أن نابليون . . نشأ من أعماق الشعب . .

عبد القادر حميده

فقرا مدقعا ، فالمحبة الحارة والأخلاق الصريحة التي تبلغ مبلغ التدين ، يضاف إلى ذلك قابلية ذهنية متفتحة خاصة للمعرفة ، مع ثقافة عقلية جيدة تجعل في الإمكان إصلاح أي خلل قد يقع بينها

وقد كان في سلوكه ما يبشر بمستقبل عظيم ، طبيعة هادئة قابلة لكل الإرشادات ، يزينها عقل وقلب وومضات من الحيوية والنشاط تظهر بين الحين والآخر ، وليس أدل على ذلك من حكاية الصاعقة التي نأمل أن تكون واقعية : (حدث أن عاصفة صاعقية اجتاحت المنطقة التي يسكن فيها وكانت من الشدة والقوة بحيث أثارت الخوف والرعب في جميع السكان، وكان الكل داخل بيوتهم ، وقد افتقد أبو فرتز [٢] ابنه ، وقد كان في دور الطفولة ، فخرج الأب لا يلوى على شيء باحثا مفتشا عن ابنه ، وفجأة عثر عليه قابعا بكل هدوء وسط هذه العاصفة الهوجاء في رأس شجرة وهو ينظر بدهشة واستغراب لاحتراب الطبيعة ، فما كان من والده إلا أن عنفه أشد التعنيف ، ولكن الولد بدلا من إصغائه إلى هذا التعنيف أجاب : « إن البرق جميل جدا ولكنه يريد أن يرى من أين أقبل هذا البرق [٣] » ...)

درس شلر الكتب الكلاسيكية باعتناء زائد ولكن بدون رغبة ، إلا أنه درس الكتاب المقدس بلذة بالغة في البيت ، وقد شغف حبا بالأنبياء العبرانيين وبجلال كتاباتهم الرمزية ، وقد كان لطبيعته الورعة — مضافا إليها تقوى والديه — تأثير في دفعه إلى الكهنوت، ولكن الكنيسة التي أراد التعلق بها كانت الكنيسة الشاملة الحقيقية وليست الكنيسة الرومية المزيفة . وفي سن التاسعة شاهد بدهشة مفرحة ولأول مرة (عجائب مسرح لودفيكزبرغ) وقد كان لهذه المشاهدة تأثير عميق في ذاكرته . وبذا يكون قد ألقى أول نظرة على العالم الذي قدر له — عرضا أو بعامل الطبيعة نفسها — أن يظهر فيه عبقريته ويحرز أنبل انتصاراته بازا بذلك أقرانه ومعاصريه جميعا

وبعد نهاية عهد صباه بدأت فترة قاسية مريرة ، اختلفت فيها تربيته وتطورت قابلياته تطورا خاصا ، وذلك بتحمله للاضطهاد ومعاناته العزلة وبتحطيم أجل أيام حياته وتشويهها تشويها شنيعا . ومع ذلك فإنه استفاد في هذه الحالة فوائد جمة ، فقد حولت سيمياء عبقريته المعادن التافهة إلى ذهب إبريز ، واستخلصت من التألم قوة ومن الخطأ حكمة وضاءة ومن كل شيء أحسنه وأرقاه

أسس دوق ورتمبرك مدرسة عالية حرة لبعض فروع التعليم المهني في (سولتيرد) في مركز إقامته في الريف ، ثم حولها إلى (ستتنارد) بعد أن أدخل عليها بعض التحسينات ، وقد سماها مدرسة كارلز . وقد رأى الدوق أن يعطي الأفضلية في الدخول إلى هذه المدرسة لأبناء الضباط ، ولما كان لدى الدوق فكرة حسنة عن شلر وأبيه طلب من الأول اهتبال هذه الفرصة السانحة

وقد صادف هذا العرض حيرة لأول وهلة من قبل الشاب والوالدين على السواء؛ لأن الأخيرين كانا راغبين في إدخال الشاب إلى حظيرة الكنيسة ، ولما اطلع الدوق على رغبتها الخاصة طلب منها التأني قبل إعطاء القرار النهائي ، وأخيرا قبل هذا الطلب بعد إحجام ونتيجة للخوف . وهكذا سجل شلر نفسه في هذه المدرسة سنة ١٧٧٣ وبذا انتقل من الحرية والآمال العريضة إلى اليونانية والعزلة والقانون

وقد أثبتت الوقائع أحقية مخاوفه ، فالسنوات الست التي قضاها في هذه المؤسسة تعتبر أشد السنين مضايقة لنفسه وإزعاجا لمواهبه ، ويظهر أن نظام التربية في ستتنارد لم يعن مبدئيا بتربية الطبيعة البشرية وإصلاح أخطائها ، بل عمل على استئصال هذه الطبيعة ووضع شيء أحسن منها في محلها . وقد كان نظام التعليم سائرا والحياة وفق خطة عسكرية شكلية جافة ، كل شيء كان يجري حسب الخطة المرسومة ولم يكن ليعطي أي مجال لحرية الإرادة، ولا إمكانية لاختلاف الطبائع والمشارب والعادات . وقد يكون لبعض الطلبة إمكانيات ممتازة ، إلا أن هذه الإمكانيات كانت مجبرة على السير وفق الخطة الأساسية والانصهار في البودقة ذاتها بدون تفريق أو تمييز ، لأن الأوامر كانت تصدر من سلطة عليا ، وهي واجبة التنفيذ على أية حال . وقد عين لكل طالب منهاج دراسته مقدما ، ولم يكن ليسمح بالقراءة الخارجية مطلقا ، وإذا حدث أن قرأ أحدهم كتابا خارجيا فلم يكن ذلك إلا خلسة . أما معيشتهم فكانت تدار بالأسلوب ذاته الذي تدار به حياتهم الروحية ، وقد كانت هذه الحياة لا تحتوي على شيء يمكن أن يقارب المتعة أو حتى ممارسة الحرية . وقد أبعد الطلاب عن

(٢) اسم شلر الأول في التعميد (٣) حياة شلر

المحادثة أو حتى رؤية أى شخص ماعدا أساتذتهم . ولم يجسر أحدهم على تخطى نطاق العبودية المضروب حولهم ، ونزهتهم نفسها كانت مقيدة بالكلمة الآمرة

يمكننا أن ندرك بسهولة كم كان مفجعاً كل هذا بالنسبة للطلبة ، وكم كانت الفجيعة هائلة بالنسبة لشلر ، لما امتاز به من طبيعة حساسة وشعور مرهف . فتراه وقد طغى عليه التبرم ولكن حياءه منعه من أن يظهر ذلك قولا أو فعلا . وقد أوقع سجنه هذا به ألماً عميقا ولكنه كان يأنف من الشكاة . وقد حفظت بعض رسائله فى هذه الفترة ، وفيها نجد النضال غير المثمر لذهن متحمس مشغول وهو يحاول ستر الكروب تحت غطاء الصبر الخائف وهو يظهر ألمه على أشده . لقد انكب على قواميسه وكتب النحو وواجباته العقيمة برصانة مصطنعة، ولكن روحه كانت كروح الأسير تحن إلى العالم الحر البهيج ، وتستعيد ذكريات حنان الوالدين والآمال والمتع الأثيرة للسنين الخالية . إن الشباب هو فضل الحياة الزاهى ، وهو كذلك ليس مما يناله أو يتخلص منه بل بما يأمله ويرجوه . وقد يظن بعضهم أن لآلام شلر أمثلة كثيرة فيقول : « أو ليس فى قصة كل طالب من طلاب أيتون مثال حى لمثل هذه الآلام ؟ أو ليس كل هؤلاء قاسى الفرقة الجارحة والمصائب الفادحة والاضطهادات المبرحة والعزلة القاتلة ؟ ولكن الصعوبات التى أضنت شلر كانت أعمق من كل هذا ... إن أسوأ اضطهاد عاناه هو الاضطهاد الأدبى ، كل هذه الأصفاد تقيد الرغائب فقط ، بل إنها تعدت إلى تقييد الإرادة الحرة العاقلة ، فزيادة على آلامه الخارجية أبعد ذهنه عن الهدف الذى شعر بأنه الهدف الحق وحول إلى هدف آخر مزيف ليس فيه من معانى الحياة شئ يذكر . ولم يجد فى الحقوق ولا فى الطب الذى اضطر على الاستعاضة به عن الحقوق ولا فى أى عمل رتيب مهما علا قدره وارتفعت منزلته ما يرضى روحه وما يشعره بالسعادة والهناء ، ولكن الذى كان يسعى إليه هو فعالية عليا لم يجد لها اسماً حينذاك والتى تخيلها يوما ما فى الانضواء تحت لواء الكنيسة وأخيراً وجدها وكانت هى الشعر بالذات . ولم تكن هذه الرغبة رغبة صبيانية طارئة، بل كانت شوقاً ملحا عميق الجذور أخذ عليه مجامع قلبه وتمثل فى هدفه الذى كرس حياته للوصول إليه . ومع ذلك فإن أساتذته اعتبروا ذلك منه رغبة صبيانية ليس إلا ... فعالجوها كما يعالجون أمثالها، ولم يتمكن شاعرنا من الانتصار إلا بعد معركة ضارية ونضال عنيف انتهى بفوزه ، ولم يحدث ذلك إلا بعد أن أصيب بأول لسعة فشتتت ذهنه وكادت تبعثر مستقبله لأنه فقد العون فى تعاسته وشقائه ، فتألم وجاهد فى سبيل قضية خاسرة، وقد قال شلر نفسه فيما بعد بخصوص ذلك : « لقد جمعت الطبيعة — بسوء تقديرها — بين ميولى الشعرية وبين مكان ولادتى . فكل رغبة فى الشعر كانت تصطدم بقيود المدرسة التى تملت فيها وتناقض خطة مؤسسها . فبحماستى لمدة ثمانى سنوات ناضلت ضد النظام العسكرى ، ولكن هيامى بالشعر كان حدا حده الحب الأول . والشئ الذى أراد النظام أن يطفئه زاده تأججاً وضراما ، وقد وجدت قلبى فى عالم الأفكار ملجأ للتخلص من الأوضاع التى عذبتنى كثيراً ، بعد أن عزلت من عالم الحقائق بالأصفاد والأغلال »

وما من شك أن حكمة شلر الخاصة علمته التوكيد على الحياة قبل توكيده على الحياة الشعرية ، وقد عبر عن ذلك بقوله: « يجب أن أترك مناخ بندس (٤) واستبدله بالأرض الخضراء ذات المناخ المتجمد فى النصوص العلمية المخيفة » وحالما يقضى الله أمراً كان مفعولا يصبح عمل شاعرنا الرتيب منتهياً وأمله محققاً ، فوقت الفراغ الذى سيحصل عليه نتيجة لذلك سيكرس للشعر أو أى شئ آخر ، وفى الحقيقة « أن بقاءه مقيداً بنزوات معلميه القساة كان أمراً غير محتمل ومهينا له ، فلا عجب أن فكر شلر يائساً فى وضعه، ولكن ما العمل ؟ وهذا مما اضطره على أن يضع خططاً عديدة للنجاة ، وقد كان يتوسل أحيانا بالهروب خلسة ليلقى نظرة على العالم الحر الحى ، هذا العالم الذى كان محظوراً عليه التقرب منه ، وأحياناً أخرى كان يضع بعض الخطط لنبذ المكان الذى كرهه هذه الكراهية مؤملا أن ينقذه القدر » . ولكنه كان صغيراً ، عديم التجارب ، لا مساعد له ولا معين ، فليس هنالك إلا تحمل ما هو واقع بصبر وأناة . يقول كاتب سيرته : « إن أى روح تحيا تحت مثل هذه الظروف المنهكة والتعسف المستعر ، مكتوب عليها الغرق حتماً فى النهاية والتخلص من

(٤) واد فى اليونان

المطامع الدنيا والانهماك المعيب والخضوع لربقة النير والتعثر فى هــذا الوجود متكسرا ، تعباً ، ومتبرما وملقياً نظرة تائقة إلى أحلام شبابه التى ليس له القوة على تحقيقها . ولــكن شلر لم يكن من هذا الطراز الاعتيادى من النــاس ليفعل مثل ما يفعلون . وتحت ستار المظهر الخارجى البارد الذى ليس فيه جاذبية مفتعلة ، ولطفه الذى شوه نتيجة العوائق والعزلة والفاقة المؤلمة التى قاساها فى حياته ، أقول ، تحت مثل هــذا المظهر تختبئ نار متأججة ليس للعوائق قابلية على إخمادها . والظروف القاسية التى أحاطت بمستقبله عرقلت نمو ذهنه نموا طبيعيا وقلصت قابلياته ووجهتها وجهة خاطئة . على أن هذه العقبات جمعت قواه وجعلته يعتمد على نفسه . أما أفكاره التى لم يكن لها مرشد يهديها سواء السبيل فقد انحدرت إلى أعماق نفسه وفتحت مغاليق مصيره ، وقل مثل هــذا عن مشاعره وعواطفه التى تجمعت فى أغوار ذاته حتى أصبحت كحم البركان يحترق وينصهر ويتجمع بعنف وبقوة هائلتين استعداداً للانفجار المروع الذى لا يرد ولا يصد وذلك واقع حتما فى ساعة معينة

« يمكن اعتبار شلر لحد الآن صبيا متبرماً ضجراً وغير نافع ولــكن الوقت أزف لــكى يصبح هذا الصبى رجلا يمزق القيود شر ممزق بقوة امتد تأثيرها فى طول أوربا وعرضها ، ولم يعد للقيود المدرســية أى تأثير فى تشويه قابليته وإضعاف قوة شخصيته الجبارة . إن نشر (اللصوص) يعتبر فتحاً جديدا ليس فى تاريخ شلر بل فى الآداب العالمية ، وليس من شــك أن الفضل فى ذلك يعود إلى نظام مدرسة ستتنارد المشوه، ولولا هذا النظام لما رأينا هذه المأساة . بدأ شلر هذه المأساة فى سن التاسعة عشر ، ويمــكن تتبع كل الظروف التى أحاطت به فأثرت فى مجرى حياته فى جميع أجزاء المأساة المختلفة بصورة جلية واضحة

ولم تمض مدة قصيرة على نشر هــذا الــكتاب حتى ظهرت تراجم له فى جميع لغات أوربا تقريبا ، وقرئ من قبل الــكثيرين بمزيج من المقت والإعجاب، وذلك بالنسبة للحساسية والانطباع الوجدانى لــكل من درس الــكتاب . لقد هبط المؤلف الصغير كشهاب على العالم مما جعله مبهوتا لا قبل له بالنقد الهادى الرصين

وفى ضجيج النقاش الحاد الذى شمل العالم فى خصوص هــذا الموضوع مدح المؤلف بأكثر من قابليته الطبيعية ، كما أنه ذم ذما فادحا ، إلا أن الحكم العام كان فى صالحه ، وطبيعى أن يتعدى كل من الطرفين حدود الاعتدال ويتجاوز جادة الحق

ولــكن مأساة اللصوص أحدثت عــواقب لمؤلفها من نوع أشد حساسية من هذا الحكم ، لقد دعونا ظهور هذا الــكتاب نقطة البدء لنجاة شلر من جور المدرسة والضغط العسكرى ولــكن فعلها فى هذا الخصوص لم يكن مبــاشراً . . لقد أنهى شلر المودة الأصلية فى سنة ١٧٨٧ ولــكن خوف الأذى اضطره أن يحفظها سرا دفيناً حتى إكمال دراساته الطبية ، هذه الدراسات التى تابعها باجتهاد كاف حتى حصل على درجة الشرف سنة ١٧٨٠ وأصبح جراحا فى فرقة (أوجى) إحدى فرق جيش (فرتمبرغ) . وهذا التقــدم ساعده على إكمال مشروعــه فى طبع (اللصوص) على حسابه الخاص بعد أن حار فى إيجاد من يقوم بذلك من ناشرى الــكتب وأصحاب المــكتبات

لــكلام صلة

يوسف عبد المسيح ثروت

٣ ـ فى بـــلاد الأحرار

للكاتب التركى الأستاذ أغا أغلو أحمد
للأستاذ أحمد مصطفى الخطيب

الحرية وردة

عاد إلى الأساتذة بعد يومين وسألنى أحدهم فقال :

— هل قرأت الدستور ؟ أحفظته استظهارا ؟

— قرأته وحفظته.. غير أنى أرجو منكم شرح بعض مواده لتعسر فهمها على . . هل لكم أن توضحوا لى قبل كل شئ الحكمة العامة لهذا الدستور ؟ لماذا وضع ؟ ولأية غاية أحدث ؟

— بكل سرور .. يجب أن تعلم أن الحرية مسألة ثقافة وتهذيب ليس إلا

— لم أفهم أيها الأستاذ ، ألا تتفضلون بشرح أوفى ؟

— حسنا .. هل سبق لك أن اشتغلت فى أعمال الحدائق ؟

— نعم !

— إذن سهل الإيضاح . . لابد من أنك قد لاحظت فى خلال تعهدك الحديقة أن شجرة ، أو وردة ، أوزهرة ، أيا كانت لا يمكن أن تنبت وتنمو وتترعرع إلا إذا توفرت لها الشروط التى تتطلبها طبيعة الشجر أو الورد أو الزهر .. وعليك أن تعلم الآن أن الحرية كالوردة أو الزهرة .. سواء بسواء . . فنموها وازدهارها يستلزمان توفر شروط تلائم طبيعتها وخصائصها الذاتية . .

— وما هذه الشروط ؟

— هل استظهرت نشيد البلاد ؟

— نعم !

— لقد جاء فى ذلك النشيد .. « أن الحرية جوهر الشعور ، وأن الشعور هو الإنسان » فلذا يجب الاعتناء الكافى بالإنسان عند « تطعيم » هذا الجوهر لكيما يؤتى ثماره المبتغاة ..

أما البيئات التى مرت عليها الأحقاب الطويلة وهى ترسف فى قيود الذل والاستعباد ، وضاعت عنها معالم الكيان الحر ، فليس تطعيمها بإكسير الحرية من الأمور السهلة الميسورة ، كما يتراءى لأول وهلة .. وذلك أن الاستبداد لا يتخذ لنفسه موطنا من الإنسان إلا الروح والقلب فحسب . . فهناك يبذر بذوره ويتأصل ، وهنالك يؤسس عرشه ويضع على رأسه تاجه الروع

وقد يخيل إليكم فى بعض الأوقات أن الاستبداد قد تهدم صرحه ، وتقوضت دعائم بنيانه ، وقضى على آثاره ومعالمه ، ويساعدكم على اصطناع هذا الظن زوال ظواهره وعلاماته ، بينما الحقيقة ، لو تأملتم مليا ، أنه ما زال حيا فى كل جانب ، مضطرما هواه فى كل فرد

وعلى سبيل المثال أقول : إنكم تجدون أناسا يطالبون بالحرية بأعلى أصواتهم ويتحمسون لها غاية الحماسة ، ولكنهم فى الوقت نفسه لا يحترمون حرية الجار مثلا . . فعند أول اصطدامهم بهذه الحرية تجدهم يرغون ويزبدون ، ويودون لو أتيح لهم سحق الشخص الذى أمامهم سحقا تاما ، والقضاء عليه بأى وسيلة

وذلك لأن عرش الطغيان لم يهدم ، وروح الاستبداد لم تقتلع ولم تنبذ بعد من الأرواح والقلوب

وهذا هو السبب أيضا فى أن الحرية فى مثل هذه الأحوال قد تنقلب إلى فوضى ماحقة ، لا تبقى ولا تذر ، ذلك أن الاستبداد التجمع سابقا فى الفرد الواحد ، يأخذ فى هذه المرة طريقه إلى الظهور عند كل فرد على حدة ، بملامحه البارزة المستدعة، فيتعاظم أثره فى النفوس على التدريج ، ويشرع البعض فى استمراء التحكم والعبث بحقوق البعض الآخر باسم الحرية ذاتها . . غير أنه قبل أن يمكن استمرار هذه الحال طويلا تظهر الحاجة ثانية إلى كتم أنفاس الكل ، وإلى قبوع كل واحد فى جلده باسم الحرية ذاتها من جديد ..

وهكذا تضطر البيئات التى لم تستأصل بعد جذور الاستبداد المعنوية من دواخلها ، ولم تقض على آثارها فى نفوس ظهرانيها إلى التقلب على الدوام بين عهدين من الفوضى وفقدان الحرية ، الأمر الذى يعد بلادة مجهولة المواقب لهذا المجتمع بطبيعة الحال

لهذا فإن دستور بلاد الأحرار قد وضع لإرشاد مجتمع كهذا إلى الطرق المثلى التى يصون بها نفسه من الوقوع فى مهاوى

مردية كهذه ، حيث فيها القضاء الأخير على البقية الباقية من حياته وكيانه أمر محتوم أكيد

أما مايهدف إليه هذا الدستور فهو القضاء على روح الاستبداد في النفوس ، وهدم عرشه وتاجه في القلوب ، وإقامة عرش وتاج الحرية عوضا منهما

— لقد فهمت أيها الأستاذ . واطلعت على قيمة الدستور الحقيقية ، فهل تسمحون بأن ننتقل إلى نصوص المواد ذاتها الآن

***

تنص فاتحة مواد الدستور على تهجين الكذب وتحريمه . . فهل يعني ذلك أن لهذه الجريمة أهمية خاصة بها ؟

— نعم !

— لماذا ؟ وهل يستطيع إنسان أن لا يكذب إطلاقاً ؟

— الرجل الحر لا يكذب أبداً. والكذب شعار الضعاف الأذلاء الجبناء ... في حين أن تتطلب أن يكون الإنسان قوياً ، شجاعا ، ذا عزيمة ماضية . . ثم إن الكذب وسيلة لإخفاء الحقيقة وسترها، وحيث تختفي الحقيقة ، تكون السيادة للباطل وحده . . ولا خير في موضع يسوده الباطل ويحكمه . . إن المجتمع الذي يعرف قدر نفسه لن يسمح بذلك بحال من الأحوال ، وهذا هو السبب في أن بلاد الأحرار تهتم اهتماماً خاصا بهذه الجريمة

— لقد فهمت أيها الأستاذ! واستنارت في نظري الآن جوانب كثيرة من الماضي الغابر . . ولكن كيف يمكن القضاء على شائبة الكذب في أرجاء مجتمع كبير ؟

— هذه مسألة تربية وتهذيب ليس إلا . . تبدأ في الأسرة والمدرسة وتنتهي في المجتمع . . ذلك أن الأسرة والمدرسة هما وحدهما اللتان تضمان الأساس الروحي الأول للأطفال . . وأن الطفل ليس إلا مخلوقا يقوم بتأثر أمه وأبيه ومعلميه ومحاكاتهم فحسب . . ثم لا ننس أيضا أن الطفل الذي ينشئه أب وأم ومعلم كاذبون لا يسعه إلا أن يكون كاذباً . . لهذا وجب على كل من الأب والأم والمعلم أن يبذلوا أقصى ماعندهم من جهد للحيلولة بين الطفل والكذب على الدوام وليس ثمة وسيلة أبعد أثراً وأضمن لتحقيق النتائج المرجوة من اجتناب هؤلاء أنفسهم الكذب قبل كل شيء.

أجل ! على هؤلاء أن لا يسمحوا للأطفال بأن يلجأوا إلى الكذب أبداً ، كما عليهم أن لا يقروا أي نوع من أنواعه مهما بدا في مظهره تافهاً بريئاً

وموجز القول يجب أن يكون الطفل عند مغادرته الأسرة والمدرسة وانتقاله إلى المجتمع مقتنعاً في أعماق نفسه اقتناعاً تاما بأن الكذب إن هو إلا داء قذر مرذول يجب تحاشيه والابتعاد عنه بأي ثمن

أما المجتمع ذاته فهو أيضاً ، لو أعد من جانبه الوسائل اللازمة لتأييد هذه الجهود الأولية ، وعبئت قواته النشيطة لدعمها بغير تراخ (كأن تطرد الكذابين مثلا من حظيرته كما هي الحال في بلاد الأحرار) لاختفى الكذب بلا مراء من أوساطه ، ولذهب أثره بدداً من نفوس ظهرانيه إلى غير رجعة

ولكن المجتمع الذي ينتهج غير هذه الخطة ، فيعتبر البراعة في الكذب عبقرية ونبوغا ، وينظر إلى النجاح الذي عماده التدليس نظرة الإعجاب والإكبار ، ويحترم الرجال الذين تحقق لديه كذبهم ونفاقهم ، أجل ! إن مجتمعاً كهذا ليضطر اضطراراً إلى الإذعان لكل مايورثه إياه داء الكذب من الذل والهوان ، ويجلبه له من الكوارث والنكبات

ففي مجتمع كهذا لا يثق إنسان بإنسان ولا يعول البعض على الآخر كما لا يبقى أي مجال للمشاركة في أي عمل يقوم على أساس سليم ، أو تنفيذ أية خطة بطريقة اشتراكية ناجحة . . وهكذا ينعدم الأمل في ضمان أي نوع من الرقي والازدهار ، فيتردى المجتمع شيئا فشيئا ، ويأخذ طريقه إلى الهاوية والاضمحلال

— آه أيها الأستاذ ! إنني كنت أيضاً أشاهد هذه الحالات منذ مدة بعيدة . . ولكنني لم أفهم عللها ودواعيها إلا في هذه اللحظة . . والآن هل لكم أن تتفضلوا بشرح حكمة المادة الثالثة ؟

— حبا وكرامة !

— تقضي هذه المادة بفرض عقوبة قاسية كالرجم بالأحجار على مرتكبي جريمة الرياء والتملق . . وفي الحق أنني لم أفهم الباعث على استعمال مثل هذه القسوة الشديدة وهذا العنف الزائد، ألا يسوغ امتداح ذوي المراكز العالية ، والقابضين على صولجان الحكم ، والإشادة بمآثرهم ؟

أليس لكل هذه القصائد الرنانة التي تملأ رحاب الأدب

أى قيمة ؟

ثم هنــاك مسألة أخرى ، وهى أن جميع منــابع السعادة ، ومصادر النعيم موضوعة تحت تصرف هؤلاء، ذوى القوة والسلطان ! بل وكثيراً ما يتوقف المصير وميزان الحظ على نظرة واحدة يرسلها أحد هؤلاء، عفوا ومن دون قصد

ألا يجوز فى مثل هذه الحالة أن يتملقهم المرء ويأتى بما ترتاح إليه عنجهيتهم وعجرفتهم ؟

— يلوح لى أن نظم هــذه البــلاد تبدو غريبة لمن كانوا على شاكلتك ممن ألفوا الخنوع ، وترعرع فى أحضان الاستبداد ولــكن قل لى بربك هل وطنت النفس حقيقة على أن تــكون حرا طليقا ؟

— نعم !

— إذن عليك أن تقوم بتغيير مابنفسك تام التغيير . . لأن كل ماذكرته الآن إنما يعود عهده الى الزمن الذى كنت تقاسى فيه مرارة العبودية ، وتعانى أوصاب الأسر . . ومادمت قد حطمت سلاسلك وقيودك وعزمت على أن تــكون حرا كريما فلا مفر من أن تعلم أن المداهنة إنما هى عمل العبيد والأسرى ، كما هى دليل أيضاً على ضعة الروح وهوان النفس، وإن الرجل المتملق يكون دائما فاقداً لشرفه وكرامته

إن رجــلا كهذا يفسد حُتى أخلاق من يتحدث اليه ويتملقه ويتمرغ فى تراب حذائه إذ يوقظ فى نفسه شهوات سيئة كالغرور والعجرفة وعدم تحمل الحق والحقيقة

ومن الأمراض الوبيلة التى ابتليت بها الجماعات الشرقية ، حتى لتــكاد تجهز الآن على البقية البــاقية من حياتها ، داء المداهنــة والتملق بصفة خاصة . . وليس ثمة مايدانى هذا الداء فى نتائجه المروعة وإمعانه فى التهديم

فهو ينفذ من الانسان فى خلايا الدماغ وشغاف القلب ويتسرب كسموم الثعابين القاتلة بعينها فيوهن الجسم ويبليه ويشله شــللا تاما

إن الشعراء الشرقيين الذين دبجوا القصائد الطوال فى المديح والثناء كانوا — بغير علم ولا هــدى — من أكبر الجانين على أمتهم ووطنهم . . وبنسبة روعة القصيدة كان الدمار المعنوى مروعا مخيفاً فضلا عن التخريب الذى احدثه المقلدون والناسجون على منوال الأوائل

ووجه الغرابة فى الأمر أن هنــاك كثيرا من المجتمعات التى تنشد الحرية وتتوق الى تحقيقها لنفسها تفرض أمثال هذه القصائد نماذج أدبية على مدارسها ومعاهدها

ليت شعرى.. أيقدر هؤلاء عظم الجرم الذى يجنونه، وضخامة الجناية التى يقترفونها ؟ أم ترى أنهم لا يعرفون مدى التأثير الذى يحدثه الشعر والموسيقى فى القلوب النضة والأدمغة الناشئة ؟

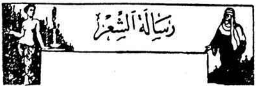
ولــكن مهما يكن من شئ فإن عمل الأمة الطامحة إلى الحرية لا يقل شأناً فى هذا الخصوص عن عمل الفلاح الذى يبذر فى حقله البذور ثم يذر فوقه الــكبريت

لقد حرم القانون الإنــكليزى منذ القرن الخامس عشر مدح الملك ، كما حرم ذمه ايضاً

وهكذا تــكون خطة الأمة الراغبة فى الحرية

(للكلام صلة)

أحمد مصطفى الخطيب



الوجود السجين

للأستاذ محمد فوزى العنتيل

فى ضباب الأحزان . . واللهب القاتم ينشق بين قصف الرعود . .
وبكاء الحنين . . بالأدمع الخرساء . . فى وحدتى ، سجنت وجودى:
نغماً تائها . . يحن إلى الحب . . . إلى عالم قصى . . بعيـد . . !

* * *

وبروحى من العواصف ليل . . أبدى الظلام . . جهم النشيد
ولهيب الأشواق يجتاح صمتى بحنين . . معذب . . عربيد . . .
والفراغ المخيف يأكل أيـامى . . وينداح فى ضبـاب شرودى

* * *

للهيب المجنون . . بين ضلوعى والدموع الحمراء تحرق خدى
وسجون الظلام . . حولى بحار عصفت فى هـديرها المستبد
وشراعى الرهيف . . فى لجة الشك غريق فى موجهـا الممتد
ولحونى مخضبات . . وقلبى نغم ظامئ ، يعذب سـهدى
وصباحى يطل من أفقه الدامى . . غريبا فى ليلـه المربد

* * *

وأنا طائر شـقى الأغاريد . . حزين الرؤى . . أرفرف وحدى
كلما قلت : قد كسرت قيودى أبدلتنى الأيام قيدا . . بقيد . .

* * *

أنت يا من أشرقت فى ظلماتى وزرعت الأنوار فى حقل أمسى
وبعطر الصباح نضرت روحى وتفجرت فى مباهج عرسى
ثم ألهبت بالجمـال شعورى وتجليت فى ارتعاشات نفسى
وسكبت الحنين فى مزهرى الحالم ؟ فاهتز فى خفوت . . وهمس :
قد دعانى روح السماء . . فأطلقت ، جناحى . . وعانق النور هجسى
فلماذا تركتنى . . لليـالى . . ؟ ولماذا تحطم اليوم كأسى . ؟ . !

* * *

لحرام على الذى يهب الحب . . أن يحرق القلوب بنوره . .
والذى يسكب العبـير لتشقى شفة الزهر من خيب عطوره . .
هـذه الوردة الخبية أغفت فى حنين الربيـع بين طيوره
وجراح الهوى . . على وجنتيها تتلظى بشوقها . . من سعيره

* * *

وابنة النور بين عرس الروابى ترد النهر فى ارتعـاش خريره
هى روح تطير فى شاطئ الرو ض ، وتهفو على غمام عبيره
ثم تهوى بين الزهور . . وتفنى فى ارتعاش الصباح بين هديره
أترى موكب الحياة . . اجتواها فطواها الفناء بين سطوره . . ؟

* * *

يا لها شـقوة . . تعذب نفسى فى غموض الظلام . . فى ديجوره
لهفة للحياة . . تغمر روحى . . بأسى خافقى . . بنار شعوره . .
الضباب الـكثيف أغرق أمسى وغدى تائه . . بليل مصيره . . !

محمد فوزى العنتيل

الملوثون !

الشاعر الشاب محمد مفتاح الفيتوري

وكان لمصر تاريخ . . وكانت لهـذا الشعب أمجاد عظيمـه
فمن رد اللاحم وهى ريح تولول حول مقـبرة قديمـه
ووطأ تاج فرعون فداست على أقداسـه جيف رميمه ؟
ومن زرع الخيـانة فى زبانا وذوب فى شـواطئنا سمومه
وغطى فجرنا بالسحب حتى نسينا فى غيـاهبنا رسـومه ؟
وقالوا : الاحتلال ، فقلت كفوا فتلك جنـاية الأيدى الأثيمه
تحرر غــيركم بالموت حينا فـا لـكم قنعتم بالهزيمه
ولو طهرت دماؤكم لعـاشت بلادكم مـودة كريمــه
وقالوا : الحـاكم الجبـار فينا فقلت وفى دمى حمم أليمـه
ألم تصنعه أيدكم ؟ ألمـــا تكونوا مضغة الشـاة السقيمه
كفاكم أنـكم كنتم دخانا يظلل وجه من صنع الجريمه
تخلوا قائد التـاريخ يمشى بموكبه لغـايته الحـكيمه !
ولا تقفوا أمام السـيل كيلا تمزقـكم عواصفه الرجيمـه
لقد طلع الصباح على حديد فواروا هـذه الجثث القديمه

محمد مفتاح الفيتورى

الأدب والفن فى أسبوع

للأستاذ أنور الجندي

عودة العميد

عاد الدكتور طه حسين إلى القاهرة ، بعد أن أمضى فترة الصيف فى أوربا كعادته من كل عام ، ومثل مصر فى مؤتمر الفنانين بالبندقية ، هذا المؤتمر الذى عقد فى ٢٦ من الشهر الماضى

وكان هذا المؤتمر من أهم الأسباب التى عوقت عودة الدكتور الذى كان حريصا على أن يعود إلى مصر بعد حركة البعث الجديدة مباشرة

وقد زرنا عميد الأدب وقضينا معه بعض الوقت ، واستمعنا خلال ذلك إلى أحاديث متعددة الجوانب حدث بها الكثير من زواره وأصدقائه وتلاميذه ، ونحن نوجزها فيما يلى ، ونرجو ألا يخل إيجازها بالمعانى العليا التى اشتملت عليها ، والتى نثرها العميد على مريديه

قال : منذ ترامت إلينا أنباء حركة الجيش ونحن فى شوق إلى مصر ، وما رأيتنى مرة من المرات وأنا عائد من أوربا أكثر فرحا بالعودة إلى وطنى منى هذه المرة . .

وقال : لقد زرت الأستاذ أحمد لطفى السيد — أمس — بعد عودتى من أوربا، فوجدت هذا الرجل الذى ارتفعت به السن فرحا ومتحمسا للثورة الجديدة ، حماسة لا تدانيها حماسة الشباب ؛ فلما هنأته بالحركة الجديدة وقلت له إنها من ثمار غرس طويل شاركت فيه أنت وتلاميذك بقدر ليس بالقليل ، قال لطفى السيد : أى فخر ذلك الذى أحرزته مصر فى نظر العالم كله ؛ أن يقف ضابط مصرى هو محمد نجيب ويقول لابن محمد على : عليك قبل الساعة الثانية عشرة أن تتنازل عن العرش ، وعليك قبل الساعة السادسة أن تغادر البلاد .. أى مجد هذا فى أن يتحقق لمصر هذا الأمل الكبير ، ويصل فيها الوعى إلى هذه الدرجة من القوة !

وتحدث عميد الأدب إلى كثير من الأساتذة والمعلمين والمدرسين فى مختلف أنواع التعلم الجامعى والثانوى والابتدائى .. من زواره وضيوفه ، فقال لهم : إن هذه الثورة من أهم ما نعتز به ونفخر .. ولابد أن تبلغ الثورة أهدافها ، وعليكم أن تكونوا أداة عون أكيد لتحقيق هذه الأهداف ، وأن تكونوا فى مختلف دور العلم رسل السلام والخير ودعاة الإيمان الصادق بالنهضة الجديدة . وعليكم كذلك أن تضحوا فى سبيل هذه الغاية ، تضحوا بكل شئ ، وألا تجهدوا العاملين فى الوقت الحاضر بمطالب أو طلبات ، وأن يكون رائدنا التجرد الكامل للعمل الوطنى ، دون أن نلتفت إلى رغباتنا الخاصة ، فهذه يجب أن تؤجل أو تنسى خلال هذه الفترة الحاسمة من تاريخ الوطن

وقال الدكتور العميد : إن الثورة فى مصر ، منذ ترامت أنباؤها إليه، قد شغلته عن كل شئ ، ولذلك فهو لم ينته من كتابه الجديد عن الإمام على ، وقد كان يطمع فى أن يعود به كاملا

وجرى الحديث حول مقالات الدكتور التى كان يكتبها فى العهد الماضى ، بذلك الأسلوب الذى يغلب عليه الإيماء والرمز ، والتى كان يفهمها كل من يقرأها ، ويعرف ماذا يريد أن يقول كاتبها ، مقالات الهلال ، و « رسالة لم يكتبها الجاحظ » ، و « جنة الشوك » .. وغير هذه مما كانت تحمل بذور الانتقاض ومعاول الهدم لذلك الطاغوت .. والعهد البغيض

الأعداد الثلاثة .. مفخرة الجيل

ما أريد أن أجامل الأستاذ الزيات أو أتملقه حين أكتب هذه الكلمة فى « الرسالة » .. حقا ! كان خليقا بى أن أكتبها فى أى مكان آخر ، ولكن هذا باب قد عودنا قراءنا أن نسجل لهم فيه أهم أنباء الأدب.. وليس شك أن من أهمها هذا الأسبوع تلك الاستقالة التى بعث بها صاحب الرسالة إلى شيخ الأزهر من رئاسة تحرير مجلة الأزهر !

ولقد كنا نتنبأ بهذه الاستقالة قبل أن تقع ، فقد قبل الأستاذ الزيات هذه المهمة على غير رغبة منه . كان يعلم مشقة هذا العمل، مشقة تجديد مجلة درجت على طريقة معينة فترة من الوقت .. ثم ليخرجها من حيزها « الأزهرى » المحدود ، كتابة وطباعة

وإخراجا .. لكى تستطيع أن تقف فى صف المجلات العالمية التى تشرف اسم « الأزهر » فى كل بلد يقرأ أهلها العربية

وعلى الرغم منه ، قبل الزيات ، وعمل .. وتحمل الكثير من المشاق والمتاعب التى لا تتناسب مع صحته أو سنه .. ولكنه ضحى بكل شئ فى سبيل العمل الباقى ، وظل الناس فترة من الوقت يتساءلون : ماذا سيعمل الزيات فى مجلة الأزهر وكيف سيخرجها ؟

وهمس الأزهريون ، لعله سيكتب مقالا شهريا ويمضى !

ثم ظهرت مجلة الأزهر ، فكانت آية الفن والعلم والإخراج والبحث ...

وكان العدد الثانى أقوى من الأول ، وقد بدا فيه الجهد كبيرا وواضحا

وظهر العدد الثالث فكان تحفة أدبية وفنية رائعة ، جمع فيها أبرز كتاب الدنيا والدين ، على موضوع هو أعظم موضوعات الإسلام جميعا ذلك هو « الفتح » .. الفتح فى الحرب والعقيدة والتشريع واللغة والنحو والفلسفة والعلم والعمارة والموسيقى

وكأنما كان الأستاذ الزيات يوحى إليه بظهر الغيب ، إذ روى فى هذا العدد الأخير من مجلة الأزهر قصة المجلة ، وتحس فى أسلوبه المرارة ، والشعور بأنه يريد أن يتنحى ، قال فى تعقيبه على مقال :

« توليت إدارة هذه المجلة وليس فيها محرر ولا مترجم ولا موظف يعين على التحرير والترجمة ، فلم أجد بدا من الاستعانة بالكتاب الذين حملوا أمانة العلم وفهموا ثقافة الإسلام . وكان من أول هؤلاء وأولاهم كتاب الأزهر ، ولكن معرفتى بأكثرهم قليلة ، وهم لم يتكرموا بالتعارف ولم يتقدموا بالمعونة ، فلجأت إلى من أعرفه من الأزهريين والجامعيين والمجمعيين

وخرج عدد « رمضان » على النحو الذى عرفت ، ولم يتغير الحال فى عدد شوال فصدر على الوضع الذى رأيت

وفى عدد المحرم — الذى بين يديك — اختلف الأمر بعض الاختلاف . لم أجد بعد ثلاثة أشهر مسوغا لانتظار التعارف أو التعاون ، ففزعت إلى لجنة من صفوة الأصدقاء فى الأزهر ، ومعى خطة لهذا العدد الخاص مبينة المعانى ، معينة الأغراض ، وسألتهم أن يختاروا لهذه الموضوعات كتابها من رجال الأزهر ، فاختاروا طائفة من أعيانهم كتبت إلى كل منهم رسالة بموضوعه وموعده . ثم انتظرت ونظرت فإذا الأساتذة جميعا لا يكتبون ولا يعتذرون ما عدا الأستاذ محمد عرفة ، وكان الوقت قد ضاق عن استكتاب غيرهم ممن يكتبون أو يعتذرون ، فنزلنا مضطرين على حكم الواقع ...

ورأيى قبل هذا أن الأزهر فكرة ، فكل من أخذ بها وعبر عنها ودعا إليها فهو أزهرى ، وإن لم يخرجه الأزهر . أما رأيى بعد هذا فهو أن العبء باهظ ، والجو خانق ، والعدة ضعيفة ، والمعاونة قليلة ، والسن متقدمة ، والصحة متأخرة ، وما أطعت فضيلة الشيخ الأكبر الإمام عبد المجيد سليم فى تولى هذه المجلة إلا لأرسم الخطة وأضع النموذج . وفى اعتقادى أن فى الأعداد الثلاثة التى صدرت على علاتها ما يكفى »

وقد صدق الزيات ، فقد رسم الخطة ووضع النموذج لمجلة عالية ، تصدرها أكبر جامعة عالية هى الأزهر ، وهذه الخطة من وجهة نظر المثقفين من خارج الأزهر — وهم الغالبية التى يكتب لها الأزهر ويواجهها ويدعوها إلى ثقافته — غاية فى القوة

ونحن نعتقد أن هذه «الأعداد الثلاثة» هى خير ما أخرجت هذه المجلة فى تاريخها كله ، وأن مجلة الأزهر يجب أن تكون مثلا عاليا للثقافة ، حتى تستطيع أن تجرى مع تيار النهضة العالمية المتدفق

ولست أنسى أن أذكر أن من أجود ما أعجبنى فى مجلة الأزهر — فى الأعداد الثلاثة الأخيرة — تلك الخلاصات المركزة من العلم والأدب المبثوثة فى الفصول الأخيرة ، فهى وحدها جهد جدير بالإعجاب والتقدير

وإن يكن الله قد شاء أن يدع الزيات مجلة الأزهر ، فقد كتب الله له أن يسجل أضخم صفحة فى تاريخها

أنور الجندى

الكتب

عصر سلاطين المماليك
المجلدان : الثالث والرابع

تأليف الأستاذ محمود رزق سليم

الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية

للأستاذ محمد رجب البيومى

يعتقد صديقى وأستاذى الجليل محمــود رزق سليم أن العصر المملوكى لم يأخذ حقه من البحث العلمى الدقيق ، فهو حافل بالمؤلفات العلمية فى شتى المواضيع الثقافية ، ذاخر بأعلام اللغــة والفقه والأدب والتاريخ الذين حفظوا التراث الإسلامى بعد سقوط بغداد فى يد التتار ، ملئ بالأحداث السياسيــة والتاريخية التى كتبت مستقبل مصر والإسلام ، وحولت اتجاه الشرق العربى إلى مأمن يعصم من الكوارث والخطوب ، ومع ما لهذا العصر من الأهمية الخطيرة فأكثر من كتبوا عنه من المؤرخين والباحثين يقابلونه بوجه عابس ، ويواجهونه بنقد حاد

وقد كرس الأستاذ المؤلف جهوده الحافلة للدفاع عن هــذا العصر وتسجيل مفاخره العلمية والسياسية ، وتعداد ما أنتج للأدب والعلم من ثروات غالية يعتز بها تراثنا النفيس ، ولم يقصر المؤلف جهوده فى هذه الناحية على ميدان واحد ، بل تشعبت به الميادين ، وانفسحت أمامه الطرق ، ووجـــد لديه من الموهبة والكفاءة والمثابرة ما حفزه إلى ارتياد الطرق المتشعبة ، والصيال فى الميادين المختلفة ، مهما أرهقه السير والتجوال ، وأضناه التجمع والوثوب

فهو فى كلية اللغة العربية يوجه تلاميذه إلى كنوز هــذا العصر ، ويعرض أمامهم أساطينه وأعلامه محللا ناقدا ، ومؤرخا مستوعبا ، ويفسح مجـال المقارنة بينه وبين العصر العباسى والأندلسى دون أن يتعصب لناحية أو يتشيع إلى فريق

وهو فى مجـلة الرسالة الغراء يطالع قراءها الأفاضل بطرائف منتخبة عن العصر المملوكى ، فيجلو صفحات رائعة عن سماته البارزة فى النقد والحرب والفكاهة ، ويبحث عن خصائصه فى التورية والجناس والزجل والتشطير ، ويدرس جوانب هامة فى حيوات أعلامه البارزين

وهــو فى جامعة فؤاد يقدم رسالة علمية عن النثر الفنى فى العصر المملوكى ، فتجلو عناصره ومقوماته ، وتزن آثاره بميزان النقد الحديث ، ويعقد صلة واضحة بين الطريف والتليد

وهو فى ميدان القصص ، يخط عدة أقاصيص تاريخية ينتزع أبطالها وحوادثها من هــذا العصر الملئ ، ويسوقها للقراء فى أسلوب طلى ، وحوار جميل ، وقد وقف — على بعضها — قراء الرسالة ، فطالعوا ما كتبه الأستاذ عن قانصوه الغورى السلطان الشهيد

ثم هو أخيرا فى ميدان التأليف العلمى يكتب ثمانية مجلدات ضخمة تكون موسوعة شاملة لأهم ما حفظه التاريخ عن هــذا العصر العجيب ؛ وإذا كان المؤلف قد رجع فى مصادره إلى مئات المخطوطات العتيقة ، يكشف عنها فى خزائنها المكنونة ، وينبش فى أضابيرها الباليــة باحثا منقبا ، ليؤيد رأيه بالدليل الملموس والحجة المعترف بها ، حتى سود آلاف الصفحات ، وأرهق جسمه وعقله وعينيه ... أقول إذا كان المؤلف قد فعل ذلك فإنه جدير بالإعجاب والتقدير ، ولن يقدر مجهوده حق قدره غير من كتب له أن يقوم بدوره الشاق فى الرصد والتسجيل

ويذكر قراء الرسالة أنى كتبت بالعدد « ٧٨٨ » كلمــة عن المجلدين الأول والثانى من هذه الموسوعة الضخمة ، وهــأنذا أكتب كلمتى الثانية عن المجلدين الثالث والرابع بمناسبة ظهورهما الآن ، فقد آثرت أن أتابع هذه الحلقة المباركة ، لأعلم مالم أكن أعلمه عن مصر العزيزة ، وتاريخها النفيس ، ولن ألخص للقراء مواضيع الكتاب ومحتوياته فى هذا العرض السريع ، فذلك متيسر لمن يمر بالفهرس مرورا خاطفا ، ولـكنى أتجه إلى نقطة هامة ، سبق أن أشرت إليها فى مقالى السالف ، وبقيت تتطلب المزيد من الإيضاح والتعليق

لقد عزم المؤلف أن يجعل من المجلدات الثمانية موسوعة حافلة بالهين والجليل من أنباء العصر المملوكى ، فسود مئات الصفحات فى تسجيل حوادث وأنباء لا يحتاج إليهـا القارئ فى شئ فهو يكتب قوائم حافلة بأخبار الفيضان وأرقام الصعود والهبوط

ويتحدث عمن زار مصر من الأضياف ويسرد فهارس متتالية للكتب المختلفة في الفقه والتفسير واللغة والتاريخ والأدب والمنطق مما أخرجه علماء العصر المملوكى في ميدان التأليف ، ولم يسمع بأكثره لتلاشيه في رحاب السنين ، كما يتتبع كل خليفة أو مملوك أو وزير أو عالم أو قاض ورد ذكره في الموسوعات الحافلة كالضوء اللامع أو النجوم الزاهرة أو حسن المحاضرة أو السلوك أو الشذرات أو التذكرة أو بدائع الزهور أو الدرر الكامنة فيخصه بترجمة موجزة مما كان سببا في إرهاق الأستاذ بلا مبرر ، وقد خالفت المؤلف في هذا الرصد العجيب فقلت في مقالى السالف بمجلة الرسالة — العدد ٧٨٨ ما نصه :

« على أنى أخالف الأستاذ في ناحية هامة تشيع في مؤلفه ، فقد حرص كل الحرص ، على أن يترجم لكل من ولى السلطنة أو ناب عنها ، وكذلك من تحـدث عنهم فيما بعد من القضاة والخلفاء ، وفى هؤلاء جميعا من لا يستحق أن يكتب عنه سطر واحد ، حيث كان فردا عاديا لم يخلف أثرا هاما أو تحدث في عهده من المفاجآت ما يدعو إلى الحديث عن زمن ولادته أو مدة حياته أو آونة وفاته ، وإنما ولى وعزل ، وكأنه لم يولد ، فكيف نتعب أنفسنا في تراجم أصنام آدمية ، قذف بها الزمن في قرار سحيق »

أقول ، لقد سبق أن قلت ذلك على صفحات الرسالة ، واعتقدت أن المؤلف الفاضل قد اقتنع برأيى المتواضع ، ولكن ظهور المجلدين الثالث والرابع ، قد أثبت نقيض ذلك ، حيث حشد الأستاذ فيهما تراجم عديدة لنكرات مهملة نقب عنها المؤلف في شتى الموسوعات ! وحسبك أن المجلد الرابع قد ضاع ٩٠٪ منه ، في هذه التراجم العجيبة ، حيث شغلت (٢٤٧) صفحة طويلة مزودة بالمراجع والأسانيد ، وبلغ عدد من ترجم لهم نحو الخمسمائة والخمسين من العلماء ، وكان الأجدر أن يقصر الأستاذ تراجمه على النابهين الأفذاذ من بين هؤلاء ، وهم لا يتجاوزون المائة على أكثر تقدير !

ولعل المؤلف قد شعر أنه بذل مجهودا كبيرا دون حاجة ملحة إليه فعمد إلى تبرير صنيعه ، وقال في مقدمة المجلد الرابع — وكأنه يرد على —

« وتستغرق التراجم الموجزة لمشاهير العصر جزءا غير قليل من صفحات الكتاب ، وهى في الحق ضئيلة بالنسبة إلى كثرة عددهم ، وواسع فضلهم ، ونظرة يسيرة إلى كتب أعلام هذا العصر وطبقاتهم تدل على صواب ما نقول ، وقد بدت فيها عناية مؤلفيها بأبناء عصرهم وأنبائهم ، وفى الحق أننا وجدنا فيها خضما واسعا بعيد الغور ، فلم يكن لنا حياله إلا حسن الالتقاط والنظم ، على أنها مرحلة في هذا الكتاب لا بد من اجتيازها ، ولا سيما أن المؤلفات التى أشرنا إليها جمعت فأوعت ، ونوهت بالمشاهير وغير المشاهير »

فالأستاذ محمود رزق يقتدى بكتاب العصر المملوكى في حشد التراجم من كل صوب ، وقد نسى أنه يكتب مجلداته في القرن الرابع عشر ، لا في المائة الثامنة ، أو القرن التاسع ، ولكل عصر خصائصه في التأليف واتجاهه في البحث ، فقد كان السخاوى وابن إياس والمقريزى يؤمون الجهات المختلفة ، ليسجلوا تراجم من يقابلونهم أو يسمعون عنهم من علماء المساجد ، وأساتذة المدارس ، ومشايخ الزوايا ، وقضاة المحاكم ، ثم يسودون صحائفهم المديدة بما يجمع الطيب والخبيث ، والصالح والطالح ، والسمين والغث ، والتافه والجليل ، وقد عفى الزمن على هذه الطريقة البالية ، وأصبحنا نختار ما نكتب عن دقة وتمحيص ، فإذا أراد مؤرخ معاصر أن يسجل هذه الحركة العلمية في وقتنا هذا ، فليس عليه أن يتتبع التراجم في شتى المظان ثم يرصدها لقارئه في إيجاز واقتضاب ، ولكن عليه أن يدرسها في مطالعته الخاصة ، ثم يأخذ منها ظواهر معينة وأدلة ثابتة يقيم عليها بحثه التاريخى الكلى ، ويجعل منها أسسا متينة لآرائه وقضاياه ، وما ينتهى إليه من نتائج وأحكام

وهل يستسيغ الأستاذ الفاضل — إذا أراد أن يكتب عن عصرنا الحديث مثلا — أن يترجم لجميع من يقع على مؤلفاتهم من أساتذة الكليات ومدرسى المعاهد والمدارس ، مع أنهم جميعا يتسمون بالعلم والفضل والإنتاج ، أو أنه يختص أولى الأثر البارز في توجيه الحركة العلمية والأدبية بالنقد والتمحيص ؟ أكبر الظن أنه يتجه الوجهة الثانية دون نزاع ، ولا يقبل أن يقلد السخاوى والمقريزى والسبكى وابن حجر فيما صنعوه منذ عدة قرون !! ولعل اهتمامه الكبير بأن يجعل كتابه موسوعة حافلة ذات كتب

وأجزاء ، قد دفعه إلى هذا الرصد والاستقصاء ، وهو بعد يعلم مناهج البحث التاريخي وما طرأ عليه في العصر الحديث من ضوابط وقيود ، ولن يحتاج إلى من ينبهه إلى ذلك ، وفي الأبواب العامة التي يفتتح بها المواضيع الرئيسية لكتابه ، ما يدل على إحاطته الشاملة بالتيار الفكري الحديث ...

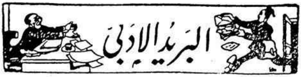
وقد خص أستاذنا الفاضل طائفة من أعلام الفقهاء بتراجم تحليلية مسهبة تحتل مكانا فسيحا من المجلد الثالث ، وقد صاغها في نسق علمي دقيق ، فهو يذكر المعالم البارزة في حياة من يترجم له ، ويعرض شيوخه وتلاميذه وآراءه الفكرية والمذهبية ، ثم يعنى بتحليل مؤلفاته ، وعرضها عرضا يكشف عن ذخائرها الدفينة ، ومكامنها المستترة ، وبذلك استطاع أن يحلل طائفة من الكتب العلمية التي تعتبر بحق مصادر مستوفاة في الفقه واللغة والأدب والتاريخ ، ولم يكتف بذلك بل أفسح المجال في المجلد الرابع لعرض مؤلفات أخرى لا تنقص عن سابقتها في شيء كوفيات الأعيان ، وعجائب المقدور ، والضوء اللامع ، وبدائع الزهور ، وكانت هذه الموسوعات العلمية في حاجة ماسة إلى من يتحدث عنها بإسهاب فيبين ما اشتملت عليه من معارف جزيلة النفع ، ويكشف عما اهتز في غصونها من ثمار يانعة ، وغرد على أفنانها من طيور صادحة ، ولعل المؤلف بذلك يلفت الأذهان إلى ضرورة الاعتناء بإحياء هذه الكتب ، وإخراجها للناس من جديد في نسق علمي يعتمد على المراجعة والتحقيق

ومع أن الكاتب الجليل قد نقد بعض هذه المؤلفات نقدا علميا سليما ونبه إلى ما تجمعه من محاسن ونقائص ، إلا أننا نلاحظ أنه يغمض العين عن بعض المآخذ الهامة ، بل ربما تلمس لها من التصويب ما يتعذر التسليم به ، وقد دفعه إلى ذلك هيامه بالعصر المملوكي ، وموقفه منه موقف المدافع الذائد ، وهو يصرح في مقدمة المجلد الثالث بأن النقد ليس غرضا أصيلا في تحليله وعرضه ، وإنما يرسم صورة هادئة خالية من صخب النقد والجدل معا ، كما يقول إنه يأمل أن يجد للنقد الصريح مجالا غير هذا المجال ، وأنا لا أوافقه على هذا المسلك ، فالفكرة العلمية لا تكون كاملة مستوفاة إلا إذا أخذت دورها الكامل في التمحيص الشامل ، والنقد الدقيق

وقد لاحظت أن الأستاذ قد كتب تراجم موجزة لبعض العلماء ، ثم أعادها بإسهاب مطيل ، وهذا لا يكون إطلاقا في كتاب يحمل اسما واحدا ، وكان الأجدر أن يترك المؤلف تراجمه الموجزة ويحيل القارئ إلى ما كتبه أو سيكتبه من التراجم المطنبة ذات العرض الشامل الفسيح ، وهناك أمر ثان يتعلق بهذه التراجم الطويلة ، فقد لاحظنا أن المؤلف قد اختار من الفقهاء عددا كبيرا كالنووي والعز بن عبد السلام وابن تيمية وابن القيم وزكريا الأنصاري ، ومع هذه الحظوة البالغة بالفقهاء فقد أغفل النحاة واللغويين فلم يكتب ترجمة مسهبة لرجل كابن منظور أو ابن هشام أو ابن مالك ، وكان الأولى في التراجم التفصيلية أن توزع وفق العلوم المختلفة ، فلا يطغى الفقهاء والمؤرخون على اللغويين والنحاة مثلا ، فيكون في هذا التنويع تاريخ ضمني لجانب مختلف من العلوم ، ولعل الأستاذ قد حاول ذلك ، فتزاحمت لديه الشخصيات ، وتقاتلت أمامه الأسماء ، وصدق عليه قول القائل

تكاثرت الظباء على خراش ... فما يدري خراش ما يصيد

محمد رجب البيومي



إلى صاحب الفضيلة وزير الأوقاف

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته وبعد ؛ قرأت فى أسرار استقالتكم من جماعة الإخوان المسلمين التى نشرت فى الصحف ماجعلنى أرى فيكم مالم أكن أراه من قبل ، إذ كنت أظن ولا أخفى عليكم أنك شيخ أزهرى من هؤلاء الذين نراهم عمائم وصوراً ! فقد آنست فى أقوالكم وآرائكم روحا ذكرتنا بأئمة النهضة الحديثة؛ فحمدت الله كثيرا وزاد فى حمدى أن تكون الآن فى أقطاب وزراء الثورة الذين أخذوا على أنفسهم إنقاذ هذه الشركة المثقلة بديون الفساد والفوضى، وإنى لأنتهز هذه الفرصة الطيبة لأفضى إليكم ببعض ماأراه فى الإصلاح الدينى الصحيح

إن سيدى الأستاذ يعلم ولا ريب أننا الآن قد حق علينا قول رسول الله صلوات الله عليه « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع » وأننا لا نصلح إلا بما صلح به أولنا ، وقد شاب ديننا من البدع والخرافات ماذهب ببهائه وأخر سير أهله، وكل صلاح لا يقوم أساسه على تطهير العقائد وتحرير العقول فهو إصلاح باطل ، وقد استعلنت بذلك بلسانى وقلمى منذ ربع قرن ولا زلت أستعلن به مادمت حيا

تقولون إنكم تريدون أن يعود المسجد إلى مكانته الأولى .. ولكن يجب قبل كل شىء أن يطهر من الوثنية حتى يعود إلى طهارته الأولى ويكون لله وحده (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله احداً)

وكذلك تقضى على وصمة أخرى بالمساجد تلك هى صناديق النذور بعد تمزيق اللائحة التى وضعوها لها . ومن يرد أن يتصدق فأمامه وجوه الصدقات التى أمر بها الله وهى كثيرة

وبعد أن تتطهر المساجد وتصبح لله وحده تعدون من سيقومون بأداء رسالتها إعدادا صحيحا حتى يستطيعوا أن يؤدوا ماعليهم للحياة وللناس أداء حسناً

ومما نطلبه منكم كذلك أن تستبدلوا بكتاب الفقه على المذاهب الأربعة مختصراً فى العبادات يحمله كل مسلم . تقتبس أحكامه من الراجح مما فى كتب السنة وعمل السلف الصالح بغير تقييد بأى مذهب من المذاهب ، لأن الله تعالى لم يطلب من عباده أن يعبدوه على مذاهب معينة . . والعامى لا مذهب له والعالم له أن يختار

هذا ما نريده منكم وقد سبق لنا أن طلبنا ذلك كله من المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق حينما تولى وزارة الأوقاف أول مرة .. ولكن يبدو أن مشايخنا عفى الله عنهم قد وقفوا فى سبيله — ونرجو أن يتم هذا الإصلاح على أيديكم إن شاء الله

المنصورة **محمود أبو رية**

١ — التربية والتعليم معا

إن نظرة خاطفة إلى أخلاق التلاميذ فى المرحلتين الأولى والمتوسطة تجعلك فى حزن عميق وألم ممض ، وأخلاقهم هذه تظهر جليا فى الميادين والشوارع ، وفى الحدائق ودور اللهو ، وفى المركبات العامة وغيرها ، ولا تختفى بوادرها المؤسفة حتى خلال ذهابهم إلى دور العلم ورجوعهم منها

الطلبة الصغار يعاكسون المارة ، ويشاكسون خلق الله ، ويتعلقون (بالترام) من الجهة اليسرى معرضين حياتهم للخطر ، وكرامتهم لألسنة السائق (والكمسارى) شأنهم فى هذا شأن الصبية المشردين — إذا رأوا عجوزا سخروا منه بعبارات نابية ، وإذا أبصروا ذا عاهة صاحوا وتصايحوا عليه ، ودعك بعد هذا من تراشقهم بالألفاظ البذيئة ، وتقاذفهم بالحجارة والحصى ، وتضاربهم بالأكف والعصى !

والطلبة الكبار يصطفون فى الصباح وبعد الظهر أمام مدارس البنات لما كستهن ومضايقتهن ، ويروحون ويجيئون فى الشوارع متعرضين لهن غير مبالين باستفزازهن ، وغير مكترثين للوم المارة ولا لمراقبة الشرطة ، وقبيل الأصيل ينتشرون فى الشوارع أيضا ، ولا مهمة لهم إلا الجرى والقفز ، والتندر بأشكال الناديات والرائحات

ين هؤلاء الطلبة المموجين فى أخلاقهم ، قدأساءوا إلى المدرسة حتى فقدت ثقة الناس فيها ، وأصبحت مقياسا لسوء الأخلاق وانحطاطها ، ولابد من أن يتيقظ ولاة الأمور لهذه الهوة السحيقة، فلقد شغلتنا برامج التعليم ، وخطط الدراسة ، ونظم الثقافة ، عن اهم جانب فى حياة الأمم وهو التربية

ليس البيت وحده المسئول عن التربية ، وإنما المسئولية بجانبه واقعة على المدرسة بوجه عام — وعلى مدرسى الدين بوجه خاص ، فالمدرسة مسئولة عن تعليم التلميـذ ، ولا يستقيم تعليمه إلا إذا استقامت تربيته ، ومدرس الدين هو المختص، وكعبة الأمل المنتظر فى توجيه التلميذ وطبعه بطابع الخلق الحسن ، وصياغته فى قالب من الخصال الحميدة والصفات النبيلة

لسنا فى حاجة إلى جيل متعلم مثقف إلا إذا كان مؤدبا مهذبا، وهذه النهضة الجديدة فى مسيس الحاجة إلى جيل صالح يرفع قدر مصر ، ولن يكون إلا إذا عنى ولاة الأمور بالتربية كعنايتهم بالتعليم ؛ وسارت التربية والتعليم جنا إلى جنب . . !

٢ — نحو مجتمع سليم

نرجو — وكلنا أمـل فى أن يحقق الله رجاءنا — أن تعمل ثورة الجيش الإصلاحية على إيجاد مجتمع نظيف سليم فى مصر يرفع شأنها ويعلى قدرها ، ويعز جانبها ويصل بها إلى المكان اللائق بالأمم المتقدمة الناهضة

إن المجتمع النظيف السليم عنوان الأمة الراقية الناهضة ، ولن يوهب لأمة من الأمم ذروة من الهيبة والتقدير إلا إذا كانت تتمتع بمجتمع سليم حى ، ولو بلغت هذه الأمة مبلغا كبيرا من القوة والنفوذ — والدول الغربية ذوات السلطان والجاه ، إنما تربعت فوق هامة المجد والعزة لأن المجتمع فى جميعها يظفر بأكبر قسط من الرقى وسلامة التكوين ونضارة الفكر

إذن فمصر اليوم فى مسيس الحاجة إلى هذا اللون من المجتمع ، ولن يتيسر لها هذا إلا إذا أخذ المصلحون على عاتقهم تكوين المجتمع تكوينا سليما ، يقوم على دعائم ثابتة قوية من الرقى والأخلاق والإشراف على توجيهه التوجيه الذى يصلح من شأنه ، وبث المثل العليا بين أفراده حتى يأخذوا بأسبابها وينشأوا عليها

ولكى نضمن تكوين المجتمع النظيف السليم ، يجب علينا أن نعنى العناية الكبرى بالشباب لأنه عصب المجتمع ودعامته — والذى يتطلع إلى أحوال الشباب — ولاسيما المثقف — فى مصر لا يسر بحال من الأحوال ، لأن غاية معظمه إن لم يكن جميعه تنتهى عند ارتياد الملاهى وركوب الدراجات، والسير فى الشوارع لمنافسة الفتيات ومماكسة خلق الله

وفى استطاعة مصر أن تخلق لهذا الشباب من المغريات ما يجذبه إليها وبما يعود عليه بالفائدة ، كالإكثار من الأندية الرياضية على اختلافها ، وخير لهم أن يستنفدوا أوقات فراغهم بين جدرانها من أن يستنفدوها فى الشوارع والميادين والملاهى وركوب الدراجات

إن العناية بالشباب من أوجب الواجبات ، لإيجاد شعب حى نظيف ، ومجتمع راق سليم ، فإن مصر اليوم فى بدء التحول من حياة أرستها ردحا من الزمن على تراب الحضيض ، إلى حياة جديدة ناهضة سترسيها إن شاء تعالى — على قواعد من الرقى والتقدم ، فهى فى حاجة إلى المجتمع السليم النظيف حتى تصل القافلة إلى غايتها

الاسكندرية نفيسة الشيخ

تحية . . وإعجاب

أعجبت أيما إعجاب بخريدة الأستاذ ميشيل الله ويردى المنشورة بالعدد ١٠٠٥ من الرسالة ؛ وهى التى يحيى بها ذكرى هجرة الرسول معارضاً بردة البوصيرى

ولئن أعجبت بالقصيدة فى قوة سبكها ومتانة نظمها فإنى أكثر إعجاباً بأن أرى عربيا مسيحيا يمدح الرسول (ص) بشعور صادق لا يقل عن شعور صاحب البردة ومن سبق الشاعر إلى معارضته من الشعراء المسلمين

لقد أثبت الأستاذ الشاعر أن محمداً (ص) هو للعرب جميعاً مسلمين وغير مسلمين.. ولا غرو فمحمد أول زعيم وحد الأمة العربية وسدد خطاها فى طريق المجد والعظمة

إنى لأكبر فى الشاعر هذه الروح القومية العالية وأحيى فى فنه وحدة العرب على تعدد الديار واختلاف الأديان

والأستاذ «الله ويردى» وإن كان عربى الروح فهو تركى اللقب وتعريب لقبه « عطية الله » لأن «ويردى» معناها «أعطى» !

ولكم فى الختام فائق التحية وللأستاذ الشاعر خالص الإعجاب

جمال مرسى بدر



العش الخـــالى

عن الإنكليزية

انتهى يوم العرس وسافرت آخر بنت كانت فى الأسرة مع عريسها الجديد ، وذهب آخر فريق من المدعوين وهم يضحكون ويمرحون فرحا بالعرس ، وأصبح المنزل هادئاً هدوءاً فوق العادة كأنه خال . فالأب والأم وحدهما فى منزلها الكبير ، وكان كل منهما يتجنب النظر إلى وجه الآخر وينظر إلى الموائد التى عليها بقايا الوليمة ، فمن زجاجات الشمبانيا إلى أطباق الفاكهة فأنواع الحلوى المختلفة

وقال الزوج لزوجته : « أليس بالمنزل غرفة لم يدخلها هؤلاء الضيوف ؟ » فقالت : « غرفة مكتبك »

قال : « تعالى نذهب إليها » ثم نظر إلى الساعة وقال : جاء وقت العشاء فلنبدل ثيابنا للمائدة »

ثم أبدل وإياها ثيابهما ، وتذكر وهو خجلان أنه منذ سنوات كان ينتظر هذا اليوم؛ يوم تتزوج بناته ويتركن له المنزل وأمهن معه

وقد كان يغار من بناته فقدكن يشغلنها عنه بمطالبهن الكثيرة ولم يجرؤ على الاعتراف حتى أمام نفسه بغيرته منهن ، وإنما كان يشعر بذلك ويخجل من شعوره ، ولكى يكفر عن هذا الشعور كان يقوم بواجباته نحو أبنائه خير قيام فلم يهمل قط واحداً من هذه الواجبات ، ولكنه كان دائماً يشعر بتلك النبرة من كل شيء يحول بينه وبين زوجته، وقد ظل كذلك إلى هذا اليوم . ففى العام السالف تزوجت بنتاه (كاتلين) و (كلير) وفى بداية هـذا العـام تزوجت جيرالد واليوم تزوجت الأخيرة وهى فرانسين ، وقد كان يحبهن جميعاً ولكنهن كن عقبة فى سبيله

واليوم لن تحدث بالمنزل الضجة التى كان يثيرها البنات وصواحبهن ، وكانت الأم تصرف كل وقتها فى خدمتهن ومرضاتهن وزوجها لا يثق بأنهن السبب فى ابتعادها عنه؛ بل كان يخطر له فى أكثر الأحيان أنها تجعلهن ستاراً لتختفى وراءه منه ، وكانت تفتنه بجمالها وتزيده شغفاً بها اشتغالها عنه، وقد تزوج منها ولكنه لم يأنس بزواجها فقد كانت دائماً فى حالة تشبه العزلة ، وكانت تهرب منه فلما رزق منها ببناته الأربع زاد ابتعادها عنه واستمرت حياتها الزوجية خمسة وعشرين عاماً وهو ينتظر ، وكان ينظر إلى المرآة ويبتسم ابتسامة مرة حينما يذكر أنه تزوج منذ ربع قرن ، وهو مع ذلك لا يتقدم إلى زوجته إلا كما يتقدم الشاب إلى فتاة صغيرة

وكان جميلا قوى البنية ، وكانت زوجته لا تزيد مع مرور الأيام إلا جمالا . وكانت شجاعتها تزيد مع هذا الجمال

نظرت إليه الآن وقالت وهى تشير إلى زجاجات الخمر والأطباق التى على المائدة : « ما هذه الفوضى التى تركت لنا يا برانينو »

وكان هـذا الاسم هو الذى ينادى به فى الطفولة، فنظر إليها وقال بهدوء : « إن اسمى هو جون »

فابتسمت أمام هـذا التقريع الهادئ . وتنـاولت معه طعام العشاء ؛ فقال وهو يتنهد تنهد الرضى : « منذ كم سنة لم نتعش وحدنا ؟ » فقالت : « منذ سنوات طويلة . مسكينة فرانسين ! لقد كان التعب الشديد بادياً عليها »

قال : « ولكن من أجمل المصادفات أنها تزوجت فى هذا التاريخ »

فقالت : « لماذا ؟ »

ونظرت إليه بعينيها الجميلتين الزرقاوين فأجاب: «ألا تذكرين أن هذا هو تاريخ زواجنا ؟ »

قالت : « آه ! لقد تذكرت . إننى كنت ناسية »

فعض شفته وبدا عليه الغضب لنسيانها ذلك اليوم . ثم ملك روعه . وشعر بخيبة الأمل فى السعادة التى كان يرجوها لأن زوجته لا تشعر بمثل شعوره هـذا . وذهبا إلى غرفة المكتب بعد العشاء وكانا يسمعان من الغرفة حركة الخدم وهم ينقلون ما على الموائد من الأطباق ، وكانت الزوجة واقفة بجانب النافذة تنظر فى الظلام إلى أعالى الأشجار وما عليها من أعشاش العصافير وإلى الممرات المظلمة فى الحديقة الجميلة التنسيق . وكان الزوج جالساً أمام مكتبه ، وقد أسند ذقنه بأصابعه

وكانت الزوجة تتذكر خلو المنزل من الموسيقى والغناء

والضحك واللعب والحديث فقالت: «ألا يبدو المنزل كأنه غير مأهول؟»

فهز رأسه وعادت هي إلى الكلام فقالت: «أظن جيرالد سيأتي في العام المقبل»

كانت دائماً تفكر في بناتها، ولم يستطع حملها على التفكير فيه، فشعر الآن بخيبة أمله، لأنه حتى في هذا الوقت لم يستطع الوصول إلى قلبها. ولكنه سكت فلم يجبها وعادت إلى الكلام فقالت: «وأظن كلير تستطيع أن تأتي شهراً في الخريف... مسكينة فرانسين! إنني أرجو لها السعادة»

عاد إليه شعوره بالنيرة من بناته ولكنه كتمه كعادته وسكت، فقالت: «لقد سمعت من بنت عمي دوليس في الأسبوع الماضي — ولم أستطع إخبارك إلا بعد انتهاء العرس — سمعت أنها تدير الآن نادياً للفتيات في جنوب لوندرا»

تخفق قلب جون وقال: «ثم ماذا؟»

قالت: «وقد اقترحت على أن أنضم إليها فهي في أشد الحاجة للمساعدة. وقالت إنني سأكون منفردة هنا مستوحشة بسبب غيبة البنات وهي ترى أن أقيم معها وآتي إلى هنا يوماً في الأسبوع. وأنت تتغيب عن المنزل طول النهار وفي إمكانك قضاء بقية الأسبوع في غيبتي وحدك»

دارت الدنيا أمام عينيه وشعر بالذل. ولكن عزته المجروحة منعت إظهار ذلك فقال: «افعلي ما ترينه»

قالت: «وإذا كنت تريدني فإني مستعدة لأداء واجبي»

فقال: «الواجب لا دخل له هنا»

فقالت: «إننا سنقرر الرأي في هذا الموضوع فيما بعد»

فرأى الزوج أن أي قرار خير من الشك وأن عليه أن يواجه الليلة مالا بد من مواجهته فيما بعد. وهو يريدها ولكن على غير هذا الشرط فقال: «إنني أرى أن تقرري الرأي الآن»

فالتفتت ونظرت إليه في صمت. ولكنه لم يطق أن ينظر إليها. وارتكن إلى ظهر الكرسي وكانت أمامه رزمة من الخطابات فأخذ يقلبها بصورة آلية ويقرأ العنوانات فأجابته: «سأذهب إلا إذا كنت في حاجة إلي»

فكان رده المختصر: «لست في حاجة إليك»

فتركت الغرفة في الحال وتركته بين أنقاض أحلامه

وبعد أسبوع كان الزوج جالسا وحده. وكانت الزوجة قد ذهبت في اليوم التالي للعرس إلى بنت عمها. وكانت نفس الزوج لا تزال متألمة من جرح عزتها. وشعر بالتعاسة لاعتقاده أنه كان من الحماقة أن يتركها تذهب دون أن يقاوم، فهو يشعر بأن الحياة بدونها لا تطاق

وقف أمام النافذة التي وقفت أمامها منذ أسبوع وفكر فيها وفيما تعمله الآن. وكانت صورتها الكبيرة على الحائط فقال في نفسه: «ترى كيف حالتها الآن؟ لعلها في خطر!»

وإنما أتى بهذه الكلمة إلى ذهنه أن أعصابه كانت شديدة الاضطراب. ولم يكن يطيق النظر إلى صورتها

وكانت الغرفة مملوءة بصور أخرى لبناته فنظر إلى تلك الصور وهو يبتسم ابتسامة مرة وقال: إنها انتصرت على طول الخط، وإنني هزمت على طول الخط كذلك

ونظر إلى الساعة، وكان الليل قد انتصف وتشبثت بذهنه فكرة الخطر، وفكر في مقدار المسافة التي يقطعها إذا أراد زيارتها، ولكنه شعر بأن ذهابه في مثل هذه الساعة ليسأل عن صحتها لا يمكن أن يكون إلا حماقة. واختصم في ذهنه العقل مع الغريزة فكانت الأخيرة هي الغالبة

وكان الكل قد ناموا، ولكن فتحه جراج السيارة لا يستغرق إلا دقائق، ثم يخرج السيارة ويوقظ السائق، فيخبره بأنه ذاهب إلى جنوب لوندرا، وأنه ليس في حاجة إليه

وفعل ذلك، واخترقت السيارة الطرق، وهو يزيد في السرعة قبل فوات الوقت. ولم يكن قد زار من قبل ذلك النادي الذي تقيم فيه زوجته ولكنه كان يعرف عنوانه، وكانت الغريزة وحدها هي التي تقوده الآن. ثم تلاشى حكمها، وتحكم العقل فأسند ظهره إلى الكرسي، وأخذ يضحك من حماقته، وهو يخترق الشوارع الخالية.. إلى أين يذهب؟ لا إلى شيء!

وأخذ يدق الجرس.. فلو رآه أحد في الطرق الخالية لخاله سكران!

ووصل إلى النادي، فنزل من السيارة ونظر إلى النوافذ،

فلم ير إلا دخانا يتصاعد . وأصغى فسمع أصواتا تدل على وجود حريق فى النادى ، فوضع يده فى فمه ، وصفر ليدعو الجنود ، وأخذ يحاول كسر النافذة بالآلات التى يصلح بها السيارة . وفى الوقت الذى كان يصيح فيه باستدعاء المطافئ استطاع الدخول من الفتحة التى أوجدها فى النافذة فجرح رأسه ويداه ، وكاد الدخان يخنقه فتراجع حتى تمكن من وضع منديل فى فمه ، ثم دخل مقتحما وأخذ يصيح « يا هيلين ! يا هيلين ! » فخرجت إليه سيدة قال لها : « إن المكان يحترق ! أين زوجتى ؟ »

قالت : « إنها نائمة فى الطابق الأعلى »

ثم صعدت معه وصاح باسمها فخرجت ودهشت وقالت « لماذا جئت يا جون ؟ »

فقال : « أسرعى بقليل من الماء »

فأسرعت وعند عودتها تذكر أنه لم يشرح لها سبب مجيئه فقال : « إن النار فى البناء ! لا ينبغى أن نضيع الوقت » ثم وضع منديلا مبلولا آخر حول فمها وبل المنديل الذى حول فمه ونزل معها فى وسط الدخان المتصاعد ، فلما رآها يكاد يغمى عليها حملها بين يديه ، وكانت الحرارة شديدة حتى يكاد يغمى عليه أيضا ، وخرج بها من النافذة

***

كانت الساعة الثالثة صباحا عندما عاد الزوجان إلى منزلهما ولم يتبادلا إلا كلمات قليلة وكانت الزوجة شديدة الشحوب وقالت : « لقد جئت إلى هنا يوم العطلة السالفة . ولكنك لم تجئ فيه »

قال : « نعم هذا هو الواجب على فى هذه الظروف »

قالت : « أى ظروف ؟ » فلم يجب . وقالت .

« ما الذى جعلك تأتى فى هذه الساعة وكيف علمت ؟ »

قال : « لا أعلم ولكن كان مستوليا على شعور غريب بأنك فى خطر فأتيت وأنا أعرف أن إطاعة هذا الشعور حماقة ، ولكنى لم أستطع منع نفسى . وما كنت أصدق القصص التى من هذا القبيل وكنت أسمع صوتا يقول لى إن زوجتك المحبوبة فى خطر »

فسكتت مدة طويلة ثم قالت : « لم أكن أعلم أنك تحبنى إلى هذا الحد »

قال : « إنى رجل محتجز يا عزيزتى وقد كنت أعتقد أنك تتركين حبى لك . ولكننى لم أكن أستطيع الوصول إليك لأنك تهربين منى »

فقالت : « نعم لأنى خائفة »

قال : « خائفة ! ! من أى شئ ؟ »

فقالت : « خائفة من إظهار محبة أكبر من المنزلة التى وضعتنى فيها . إن لى عزة نفس ولذلك كنت أجعل بناتى ساترا حتى لا ترانى »

قال : « وكيف عرفت المنزلة التى أضعك فيها »

فقالت : «عرفتها من ذهابك بعد العشاء مباشرة إلى مكتبك كأنك لا تريد أن تكون معنا »

قال : « إننى كنت أفعل لأنى لا أريد أن أرى صواحب بناتى ولا تلك الضجة التى تحول بينى وبينك »

فقالت : « وكيف لا تسر عندما أكلمك عن بناتنا ؟ »

قال : « كيف عرفت ذلك ؟ »

فقالت : « إنك خير من يقوم بواجبات الأب . ولكنى عرفت ذلك من ملاحظتى مايبدو على وجهك أثناء الحديث عنهن . وفى يوم الأربعاء الماضى أردت أن أمتحن سعورك وكان خطاب بنت عمى قد وصل إلى . ولكننى لم أعره عناية . وقد جربتك بالتكلم عنه وقلت فى نفسى إنك إذا سمحت بذهابى فإن ذلك سيسحق قلبى . وأنا لم أكن أريد الذهاب إلى بنت عمى »

فقطب حاجبيه وقال : « إنك تذكرت عزة نفسك ولم تتذكرى عزة نفسى ! وقولك دلنى على أنك تريدين الذهاب . وقد كنت فى غيابك تعسا للغاية » ثم وقف فجأة وقال : « لقد كنا مغفلين »

وتناول كفها بين كفيه وقال : « أظننى وجدت نفسك بعد هذه السنوات ولن أتركك تفلتين بعد الآن »

فقالت هامسة : « إنى أحبك كما لم أحب أحدا فى الوجود »

ثم وضع ثغره فوق شعرها الناعم اللامع وقال : « لك أن تتكلمى عن بناتنا الآن فما دمت أنك كنت تتخذينهن ساترا بينى وبينك . فإنى لا أغار منهن »

فابتسمت وقالت : « لقد أدركت نفسك أيها الطفل الكبير »

ع . ن

! ؟ !

* قال الشاعر الألمانى جوته لصديقه أكيرمان *
* كل امرئ يأتى عليه حين من *
* دهره يظن فيه أن آلام *
* فرتر إنما كتبت *
* له خاصة *

{الطبعة الثامنة}

{الثمن ٢٥ قرشاً}

آلام فرتر

للأستاذ أحمد حسن الزيات

هى القصة العالمية الواقعية الخالدة للشاعر الفيلسوف * جوته * الألمانى

ثمنها ٢٥ قرشاً عدا أجرة البريد .. وهى تطلب من جميع المكتبات ومن إدارة الرسالة

ت : ٢٧٤٩٠

مطبعة الرسالة